مدينة شبعت من الموت

اسم الكتاب: مدينة شبعت من الموت
اسم الكاتبة: دعاء إبراهيم
تصميم الغلاف: مصطفى الدناصوري
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 /
الترقيم الدولي:

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

مدينة
شبعت من الموت

دعــاء إبراهيــم

للنشر والتوزيع
Arabic Library

يا أبتِ

يا أُمي

لن أكُف عن الدعاء لكما ما حييت

أنتما أصحاب الفضل عليّ دائمًا وأبدًا.

شكرًا لكما أن أهديتماني

إخوتي

السند والأنس.

شكرًا لكم جميعًا؛ فوجودكم حولي يقويني.

عابرًا خلال روحي

راقدًا في حنايا القلب

شاردًا في خبايا العقل

زائرًا في أحلامي

سارقًا من نومي

لاهثًا من شقاء البعد

ضائعًا بين حرفين؛

أولهما بداية "حياتي" وآخرهما جاوز منتصف الصبر.

إهداء

إلى زوجي

مقدمة

عزيزي القارئ، أشكرك أولًا أنك أقبلت على اقتناء روايتي، فقط كن حذرًا قبل الشروع في قراءة هذه الرواية وعليك التأكد جيدًا أنك لست بجائع، وأن ثلاجتك بها ما يكفي لسد رمقك، أو على الأقل يتوفر لديك خبزٌ؛ فالرحلة طويلة، طويلة إلى حدٍ مخيف، ستجوع لا شك، ستشتهي رائحة الطعام، ستشعر بقيمة كسرة الخبز التي سقطت منك سهوًا وأنت تتناول فطورك فتكاسلت عن نفضها وأكلها!

ربما تتقزز من رائحة الشواء واللحم، لكنك لن تكرهه للأبد!

لا تثق في عابر سبيلٍ اقتفى أثر خطواتك ليلًا وأنت عائدٌ لمنزلك، فلا تدري ما يبيته لك في نفسه.

أعتذر لك عن شحنة الهوْل التي ستجتاح كيانك، أعدك أنك ستملأ بطارية روحك من الرضا والقناعة، وسيصيح لسانك بالحمد لله.

يا قارئ كلماتي، لك مني كامل تحياتي.

دعاء إبراهيم

لا تثق في خطوات الآخرين؛

فربما تتعثر في طرف ردائهم فتسقط!

الفصل الأول

أصدق الكلام

ما خرج من فم مجنون!

كنتُ أحتسي قهوتي الساخنة في شُرفة منزلي، تحسستُ قطرات المطر بأصابعي، تلك العادة التي لا أمَلُّ من تكرارها منذ الصغر، ربما تُذكِّرني بوالدي فأفعلها رغمًا عني، فيسري الحنين في قلبي ليشعرني بوجوده، رائحة المطر الممزوجة ببخار قهوتي الدافئ الذي يداعب أنفي المتجمد من شدة البرودة يشعرني بانتعاشٍ أشتاق إليه في فصل الصيف، يعم الهدوء في المنطقة التي أسكن فيها بسبب سوء الأحوال الجوية، لمحتُ صديقي راضي قادمًا من بعيدٍ تحت زخات المطر المتتابعة، تتقاذفه رياح شتاء ديسمبر الهائجة كورقة شجرٍ تتمسك بغصنها لتقاوم شدة الرياح، نظرتُ إليه من الشرفة أحثه على الصعود، فقال بصوتٍ مرتجفٍ وهو يحاول النفخ في يديه؛ ليُبدد برودتها بقليلٍ من الدفء:

_انزل يا رحيم، بسرعة.

تعجبتُ من أمره؛ كيف سنخرج في هذا الجو السيء، فقلتُ: لماذا؟! فلتصعد أولًا؛ ريثما يتوقف المطر.

قال وهو يضغط على أسنانه ليتحكم في اصطكاكها:

_انزل أولًا وسأخبرك.

استأذنتُ أمي في الخروج، فحدجتني بنظرة لوْمٍ؛ كأنني لم أكن كبيرًا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره! رغم أنها مُحقة؛ فمن الجنون أن يخرج أحدٌ في مثل هذا الطقس السيء للتسكع مع صديقه! وإلا سيعود مصابًا بنزلة بردٍ لا محالة على أقل تقدير، وذلك إن استطاع الفرار من أعمدة الكهرباء التي تصعق مَن يمر بجوارها، أو نجا بأعجوبةٍ من البالوعات المفتوحة لتصريف المياه الزائدة!

ارتديتُ معطفي وخرجتُ إلى راضي الذي انكمش داخل ملابسه من شدة البرد، سألته بفضولٍ:

_ماذا في جُعبتك يا صاحبي؟

قال بحماسٍ:

_وجدتُ شيئًا ما في دار شِندي المهجورة.

قلتُ باستثارةٍ:

_هل تسللتَ إليها وحدك؟! أخبرني ماذا وجدتَ؟

قال بصوتٍ رخيم وهو يتلفت حوله:

_نعم، دخلتها، لكن لم أجد البشر المحنطين داخلها؛ بسبب اللعنة التي حلت عليهم كما أخبرونا قديمًا!

تذكرتُ جدي الذي حكى لي الكثير من الحكايات حول تلك الدار، كلما مررنا بجوارها أسرع خطاه، وسحبني من يدي بشدةٍ حتى أشعر بعظامي تتفكك من مكانها، وفي كل مرةٍ يفعلها يقول:" اعذرني يا ولدي، أخشى أن يحدث لنا مثل قصة فلان" ثم يشرع في سرد المزيد من الحكايات المثيرة لفضولي والمخيفة في ذات الوقت!

فلان ابتلعته الدار ولم يخرج منها، حتى أن أحفاده كلما مروا على تلك الدار ترحموا عليه كأنها مقبرته!

وآخر ابتلعته الدار لدقائق ثم عاد منها مخبولًا أصابه الجنون، يسير في الطرقات بجنون لا تفهم من تُرَّهات حديثه شيئًا، يحكي قصصًا من الماضي لا نعلم عنها شيئًا، حتى العم

والي الذي يسير في الطرقات يهش علينا بالعصا يزعمون أنه تسلل لتلك الدار ذات مرةٍ، وعاد منها مخبولًا فاقدًا عقله!

أما الدكتور وهدان، فقد أصابه جنون العظمة، وشخَّصه الأطباء بذلك؛ لأنه بعدما ابتلعته الدار وعاد منها زعم أنه كان في قصر محمد على، وأنه كان يستشيره في أمور الحكم بعدما عيَّنه المستشار الخاص له.

الكثير والكثير من الحكايات التي تثير فضولي أكثر مما تثير خوْفي، لكني لم أجرؤ يومًا على الاقتراب من تلك الدار؛ حتى لا يصيبني من لعنتها مسٌ أو جنونٌ، لا أؤمن بتلك الخرافات لكني كأي نفسٍ بشرية تخشى خوْض التجربة؛ لأني تعلمتُ من أخطاء غيري حتى لو لم أصدقهم.

سألتُ راضي بحماسٍ:

_ماذا وجدتَ بها؟

قال بريبةٍ:

_إنها دارٌ خاوية تمامًا إلا من شيءٍ واحد.

قلتُ بفضولٍ:

_وما هو؟

اتسعت حدقتا عينيه، كاد يثقب عيني بنظراته:

_وجدتُ قارورةً كبيرة الحجم من الذهب.

اندهشتُ لما سمعتُ؛ خاصةً أنه من الصعب أن يمتلك أحدٌ في قريتنا البسيطة شيئًا من الذهب بهذا الحجم!

وحتى لو امتلك أحدهم أطنانًا من الذهب فبالتأكيد لن يخبئها في دار شندي!

ترجلنا معًا حتى اقتربنا من دار شندي المظلمة، صوت وقْع أقدامنا على أوراق الشجرالجافة يحدث جلَبةً تنذر المتلصصين بالابتعاد.

كانت عقارب ساعتي تشير إلى التاسعة والنصف، ظلام الليل الحالك مع غياب ضوْء القمر يجعل الرؤية عسيرةً، بالطبع لا يهتم أحدٌ بإنارة شارع ليس به سوى بيتٍ واحدٍ قديمٍ مهجور، بالإضافة إلى فرار الناس من السكن بجواره منذ زمنٍ؛ خِشية أن تصيبهم اللعنة أو تبتلع الدار من

يسكن بجوارها، تخفيْنا قليلًا خلف جدارٍ قديمٍ ذابت أحجاره وكادت تسقط، ساعدتنا ظُلمة الليل على الاختباء حتى تأكدنا ألا أحد يتتبعنا أو يرانا، ثم تسللنا إلى داخل الدار بسرعةٍ، دلفنا من الباب الحديدي الذي أصدر صريرًا مخيفًا جعل قُشعريرةً تسري في جسدي، لا أدري بفعل الخوْف من مجهولٍ ينتظرنا، أم من الأقاويل المخيفة التي دارت حول هذا البيت!

الآن قمنا بهدم معتقداتٍ وأساطير نُقِشت بعنايةٍ في ذاكرتنا منذ الصغر، دار شِندي بالنسبة لقرية أبيس مكان قديم مهجور، غُرِست حكاياته في ذكريات كل طفلٍ نشأ بالقرية، زعم آباؤنا وأجدادنا أنها دارٌ مسكونة بالأشباح، ومَن يدخلها تحِل عليه اللعنة ثم تبتلعه الأرض، لا يخرج منها أبدًا، أو يتحجر ويتحول إلى تماثيل حجرية، أو ربما يصيبه الجنون ويسير في الشوارع والطرقات يحكي أشياء غير مفهومةٍ كالمجاذيب!

كثيرًا ما راودتني فكرةٌ أنها مجرد أساطير وخُزعبلات لا صحة لها من الأساس، لكني لم أجرؤ على دخوله وحدي، شققتُ الظلام إلى صالةٍ فسيحة لا أتبين منها شيئًا سوى أني أشعر بتأخر صدى صوتي حينما أتحدث، شعرتُ برجفةٍ وكأن أحدهم يتنفس خلفي! بالطبع ليست أنفاس راضي لأنه متشبث بذراعي، يبدو أنها أوهامٌ خلقها عقلي بسبب حالة الخوْف التي غلَّفت قلوبنا، اصطدم قدمي بشيءٍ معدني؛ فانتفضتُ صائحًا، فتَمَسَك راضي بذراعي بقوةٍ، قمتُ بتسليط الكشاف الضوئي ناحية هذا الشيء، إنه غطاءٌ ذهبي اللوْن مربوطٌ بسلكٍ معدني قصير، موصل بيد قارورةٍ كبيرة بحجم ثلثي طولي تقريبًا، رأس فوهتها يسمح بدخول رأسي! ملمسها معدني ناعم يسطع بتوهج، كلما سلَّطتُ ضوْء الكشاف الخافت عليه انعكست أشعةٌ ذهبية نقية إلى عيني، لاحظتُ أن بجانبها حذاءًا نسائيًا ليس بالقديم!

تبادلتُ نظرات الشك مع راضي، ماذا يعني وجود ذلك الحذاء؟! هل تسللت إحداهن إلى هنا من قبل؟! لكن

أين هي؟ وماذا كان مصيرها؟ ولم تركت حذاءها؟ هل تركته لهوْلٍ ما رأته هنا ففرت مسرعةً ونسيته؟! أم أن لعنة الدار حلت عليها وابتلعتها الأرض؟! إنه لشيءٌ مُربكٌ ومخيفٌ حقًا!

جذبني راضي من أكمامي ناحية الباب عازمًا على الانصراف فأوقفته، قال آمرًا:

_هيَّا بنا يا رحيم، لقد أشبعنا فضولنا بما يكفي، هناك شيءٌ غامض ومخيف هنا حقًا، ولن أُضحي بنفسي من أجل إشباع فضولي.

قلتُ دون أن ألتفت إليه:

_لن أغادر يا راضي، قبل أن أعرف سبب وجود ذلك الحذاء. انتظر لنتفحص القارورة، ونبحث في المكان عن شيءٍ آخر، ربما تحوي الدار الكثير من المفاجآت.

قال بتوتر وخياله يتراقص خلفه بشكلٍ يثير الرهبة:

_ أنت تجازف يا رحيم، تجازف بحياتنا.

قلتُ بلا مبالاةٍ:

_لن يحدث شيءٌ، أنا سعيدٌ بكسر حاجز الخوْف الذي ترسَّخ داخل عقلي وإشباع فضولي تجاه هذا البيت. لن أغادره بتلك السهولة.

ثم التفتُّ ناحيته ورمقته بنظرة تعجبٍ، وقلتُ:

_ألستَ أنت الذي جئتَ بي إلى هنا؟! وأخبرتني أنك تسللتَ للدار وحدك! لمَ كل ذلك الخوْف؟!

قال بتوتر:

_لم أدخلها في المرة الأولى، اكتفيتُ بتسليط الضوْء وتفقد المكان من الخارج، كنتُ أظن أن الدار بها أثريات وذهب؛ لذلك جئتُ إليك لندخلها معًا، لكن بعدما أتيتُ كما ترى، الأمر مخيفٌ، إنها تتنفس!

ازدردتُ ريقي وقد أكد ظنوني، هناك صوت أنفاسٍ قادمة من القارورة، كلما سمعتها أقنعتُ نفسي أنها من هلاوس عقلي.

قطع شرودي صوت صرخةٍ أنثوية طويلة المدى، قادمة من داخل القارورة، تردد صداها في الفراغ مما جعل عروقي تتصلب، وشعري ينتصب خوْفًا، جذبني راضي بهلعٍ ناحية الباب فأفلتُّ يده بسرعةٍ، اتجهت ناحية القارورة، نظرتُ داخل الفُوهة بعمقٍ فلم أجد شيئًا سوى ظلامٍ حالك. مددتُ يدي داخلها أحاول تحسس ما بالداخل، شعرتُ بنغزاتٍ في نعلي كادت تثقب قدمي لولا أن خلعته بسرعةٍ وطرحته أرضًا بجوار نعلي الفتاة، كان راضي ينظر إليَّ من بعيدٍ بترقب وذعرٍ متوسلًا بالمغادرة، لكني لم أُشبع فضولي بعد!

نظرتُ مرةً أخرى في القارورة مسلطًا ضوْء الكشاف داخل فُوهة القارورة، شعرتُ أنني أعلى ناطحة سحابٍ، أرى خيالات صغيرة وكأني أتطلع إلى الناس من نافذة طائرة.

فجأةً!! التفت الخيالات حولي بسرعةٍ، واختفى راضي عن ناظري! هناك جاذبيةٌ تسحب رأسي ناحية فُوهة القارورة، فانزلقت رأسي داخلها وتضاءل جسدي، وابتلعتني دون مقاومةٍ مني، انزلقتُ داخلها كأنني وقعتُ في فضاءٍ فسيح.

كان راضي يحاول تحريك القارورة بعنفٍ لتلفظني خارجها، سمعتُ صرخاته تتداوى في المكان:

_ رحيييييم، لن أتركك يا صديقي، مُد لي يدك، رحيم عُد.

حاول إدخال رأسه في عنق القارورة هو الآخر فلفظته بشدة فسقط أرضًا، ظل يلهث، كاد يجن، يتلفت حوله في ذعرٍ، يتأمل جدران المنزل المكسوة بخيوط العنكبوت، يصرخ بشدة:

_أيتها الدار اللعينة! أعيدي لي صديقي.

ظل يتلفت حوله بهيستريا؛ يحاول تحريك القارورة دون فائدة، فسقط أرضًا مغشيًا عليه!!

وانزلقتُ داخل القارورة بعدما حُفِر في رأسي منظر صديق عمري مُلقى أرضًا فاقدًا وعيه، اعذرني يا رفيقي لم أستطع منع نفسي من سَبْر أغوار فضولي، ففقدتُ نفسي وفقدتك.

شعرتُ أنني أنزلق في فُوهةٍ عميقة، أسبح في الفضاء الشاسع، أدور في هالاتٍ من ألوان الطيف تتداخل بعضها في بعض، غُصة تندفع إلى حلقي جعلتني أختنق، كطفلٍ وُلِد لتوه، يصرخ من دفعات الأكسجين التي تقتحم رئتيه دون هوادة، لا.. لا مجال لفقدان الوعي الآن، لابد أن أخرج من تلك الفجوة الخاوية، حاولت الصراخ لكنه خرج مكتومًا لا يتجاوز حدود عقلي، حاولت التشبث بشيءٍ، يدي عبرت من خلال الهالات الملونة كأنني أغرق داخل عقلي، أو كابوس يتملّك مني دون يقظة، لا جدوى من محاولة النجاة، استسلمت جفوني في وهنٍ، غرقتُ في اللاشيء وفقدتُ إحساسي بالوجود.

الفصل الثاني

ليس التائه من ضاع في غير بلده؛
بل من ضاع في تُرَّهات عقله!

لسعات أشعة الشمس الحارقة تتسرب إلى جفوني المتثاقلة كأنها سهامٌ غليظة تجبرها على إفساح الطريق لمداعبة عيني، فتحتها ببطءٍ أحاول مقاومة ضوْء الشمس الحارق، جلستُ بجسمٍ متعب، مرهق، متكسر العظام، كأني سقطتُ من أعلى قمة جبلٍ، نظرت أمامي فإذا ببوابةٍ كبيرةٍ من الحجر تتوسط بنايتين من طابقين!! بدا غريبًا بالنسبة لي، تلفتُّ حولي بقلقٍ! تساءلتُ أين أنا؟! وكيف جئتُ إلى هنا؟ تذكرتُ دار شندي، والقارورة، وراضي صديقي المغشي عليه، قمتُ سريعًا أدور حول نفسي أبحث عنه فلم أجده!

نظرتُ في ساعتي التي توقفت عقاربها على التاسعة والنصف، سرى إليَّ إحساسٌ بالخوْف من المجهول، مر من أمامي أحد الباعة يرتدي ملابس غريبة، يجر عربةً خشبيةً عليها أقمشة ومنسوجات بألوانٍ مختلفة، يتجه ناحية البوابة الكبيرة، استوقفته وقلتُ بتلعثمٍ:

_معذرة، أنا غريب عن المكان، أين نحن الآن؟

نظر إليَّ الرجل بريبةٍ، ثم قال:

_كيف تتوه أمام بوابة المحروسة؟ بوابة القاهرة يا سيدي!

ازدردتُ ريقي مضطربًا متخبط الفكر، تتصارع الأفكار في رأسي. كيف ذلك؟! كيف قطعتُ تلك المسافة الكبيرة من قرية أبيس إلى القاهرة؟! لمَ يبدو الرجل غريبًا؟!

تأملني الرجل بتعجبٍ ثم تركني وهو يتمتم بكلماتٍ لم أفهمها، تسللتُ وراءه من ذلك الباب، ساقتني قدمي رغمًا عني للسير خلفه، الخوْف من كونك وحدك في مكانٍ لا تعلم عنه شيئًا يجعلك تتشبث بمَن يعرف أكثر مِنك، ماذا لو كان راضي خلع نعليه وقفز خلفي؟! لم أكن أخشى الضياع في مكانٍ مجهول ما دُمتَ بجانبي يا صديقي، لكن فرّقنا القدر وجعلني أواجه مصيري دونك، وما أهون المصير بجوارك حتى لو ضِعتُ في رحابة الكون! وما أصعب مؤونته لو ضِعتُ وحدي بدونك! مشيتُ بخطى تائهةٍ لا أعلم وجهتي، فإذا بي داخل مدينةٍ مغلقةٍ على أهلها بسورٍ

كبير، الكثير من المحال الضيقة المتراصة بجوار بعضها، الناس حولي يرتدون ملابس غريبة لم أعتدها؛ فالرجال يرتدون العمامة والجلباب الواسع، والنساء يغطين وجوههن بالبُرقُع الأسود الذي يخفي أنوفهن وفمهن فقط، كأني سقطتُ في لوحةٍ فنية عن القاهرة قديمًا!

شعرتُ بوحشةٍ تجتاحني ورعشةٍ تأسر جسدي المجهد، لا أدري أين أنا! أنا ضائعٌ بلا أهلٍ، بلا مرشدٍ، بلا صديقٍ أنيس يبدد خوْفي ووحشتي، أنا وحدي في مكانٍ لا أعلم عنه شيئًا، وربما زمان آخر! لا أعرف تحديدًا. واصلتُ المشي لمدة طويلة لا أعلم مداها؛ أحاول الفرار أو العودة إلى داري فلم أهتدِ السبيل إليه.

معالم المكان تغيرت؛ البنايات!! الناس!! الأثاث!! والملابس!كل شيءٍ اختلفت هيئته.

البنايات على الطراز القديم، تتكون من طابقٍ أو طابقين، وأحيانًا ثلاثة طوابق، حيث المشربيات المصنوعة

من الخشب المنقوش والمزخرف التي تعتبر إحدى فنون العمارة العربية الإسلامية قديمًا.

الشوارع الضيقة ذات الأراضي الحجرية، المحال المتلاصقة التي كثرت فيها الأعمال الحرفية القديمة التي تدل على الهندسة المعمارية الإسلامية، وبراعة الصناعات اليدوية.

جلستُ بجوار أحد المحال، وكان يبيع خبزًا طازجًا ذا رائحةٍ تغري معدتك، تضورتُ جوعًا وبدأت معدتي في إصدار قرقرةٍ تطلب ما يسد رمقها.

أقبل رجلٌ ذو ملابس رثة يبدو عليه الهزال، فسأل صاحب المخبز أن يعطيه رغيفًا، فإذا به ينهره ويلقي به بعيدًا قائلًا بضجرٍ:

_ ابتعد أيها الشحاذ الفقير، اذهب إلى الخليفة واطلب منه أن يُعيرك خمسة عشر دينارًا ثمن رغيف الخبز، لعله يدري بالورطة التي وضعنا فيها هو ووزيره.

تطايرت الكلمات من فمه الغليظ ذي الشارب الكث، عيناه جاحظتان تنم عن غلظته.

رد عليه أحد البائعين من المحل المجاور له بسخريةٍ:

_ صدقت يا عبد العال، كيف يوافق الخليفة على خلو المخازن السلطانية من الغلال هذا العام، وعدم تخزين ما يكفي متطلبات الشعب؟! لقد أعطى الفرصة لأمثالك باستغلال الأزمة ورفع تسعيرة رغيف الخبز.

رمقه الرجل بعينيه الجاحظة تلقي سهام الغضب ناحيته:

_ وما علاقتي بما تقول؟! أنا شأني شأن باقي التجار، أبيع بالسعر المتداول في السوق.

باغته الآخر قائلًا:

_ الكل يستغل ويتعلل بغيره! فلتبدأ بنفسك وترحم هذا الضعيف ليرحمك الله.

تراجعتُ عن فكرة طلب رغيفٍ يسد جوعي، يبدو أن الكرم صفةٌ متنحية في هذا الزمن الغريب! انتبهتُ لسعر رغيف الخبز! كيف يكون ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر دينارًا!!

الخبز أرخص طعامٍ يمكن أن يأكله جائع، الخبز في بيت الفقير والغني! ظل الرجلان يتحاوران، وعلا صياحهما، واحتدت المناقشة بينهما حتى وصلت للاشتباك بالأيدي، انتهزتُ فرصة انشغال الرجل وسرقتُ رغيفًا، ثم أخفيته بسرعةٍ تحت قميصي وانزويتُ بعيدًا. كيف فعلتُ ذلك يا رحيم؟! أتسرق؟! كيف استبحتَ ما ليس لك به حق؟! دفعني جوعي لفعل ذلك رغمًا عني كأني مُسيرٌ لا مُخيرٌ! طغت وخزات جوعي على وخزات ضميري، حاولتُ تجاهل الأخيرة، وجلستُ في أحد الأزقة ألتهم الخبز في نهمٍ.

الباعة يجلسون في محالهم، السوق فيه حركة قليلة، تطايرت إلى سمعي كلمات صاحب المحل المجاور لي يقول للعامل الذي يعمل معه:

_استمع إليَّ يا رشاد، البضاعة في المحل قرُبت على النفاد وهكذا المخازن، لا أملك ما أنفقه لشراء بضاعةٍ جديدة، والسوق راكدٌ لا بيعٌ فيه ولا شراء، لن أستطيع دفع أجرة لك من الآن، فاذهب إلى حال سبيلك، وابحث عن عملٍ آخر وليرزقك الله ويرزقني.

رد العامل بصوتٍ مختنقٍ بالبكاء:

_ أرجوك، دعني أعمل عندك ولا حاجة لي في الأجر، أعطني رغيفًا من الخبز كل يومٍ أطعم به أطفالي وزوجتي، ولا حاجة لي في المال.

قال التاجر بأسى:

_يا بني، أنا بالكاد أُطعم أسرتي، كما ترى الحال الذي آلت إليه البلاد بعد جفاف مياه النيل، وتخريب الجنود المتمردين للأراضي الزراعية وقنوات الري بعد تفككهم

جعل الأزمة تشتد أكثر، ولم يعد هناك ما نأكله، فلتذهب وليرزقنا الله.

تابعتُ العامل وهو يسير منكسًا رأسه باكيًا، يضرب كفًا بكف، ضعيف البنية، لم أفهم كيف يكون قهر الرجال إلا الآن! حينما يفقد مصدر رزقه ولا يجد متسعًا يأويه. شعرتُ أن الرجل يمشي متثاقلًا يجر همومه، اتبعته حتى وصل إلى داره، طرق بابه طرقتين ففتحت امرأةٌ تحمل طفلًا رضيعًا على كتفها، ثم قالت بلهفةٍ:

_ هل جئتَ بشيءٍ نأكله؟

هز رأسه نافيًا بأسى، فلطمت فخذيها باكية وهي تتمتم:

_أبناؤك سيموتون جوعى يا رشاد، وسنموت معهم.

ثم أغلقت باب الدار بعنفٍ فلم أعد أسمع شيئًا.

جلستُ بجانب الدار على مصطبةٍ من الحجر، أحاول ترتيب أفكاري لعلي أصل لشيءٍ، تُرى قذفتني القارورة في أي زمانٍ؟ ولمَ فعلت بي ذلك؟ وكيف سأعود إلى داري؟

بالتأكيد أمي قلقة الآن للغاية، كيف سأخرج من هذا المأزق؟ غلبني النُّعاس على المصطبة وأنا أفكر، تقلبتُ أثناء نومي كثيرًا ولم تؤرقني صلابة المصطبة، كأني فاقد الصلة بجسدي.

*****

استيقظتُ في الصباح، جلستُ أفرك عيني أحاول تذكر أين أنا؟ شعرتُ بانقباضةٍ في صدري حينما تذكرتُ ما حدث بالأمس، قمتُ وعزمتُ الأمر على أن أجمع المعلومات الكافية التي ستساعدني في الفرار من هذا المأزق، قضمتُ باقي الرغيف الذي تبقى مني بالأمس ولا أعلم لماذا لم أعطه للمرأة التي بكت من شدة جوعهم! يبدو أن خصالي تغيرت بتغير الزمان والمكان، كيف يدفعنا الخوْف من الجوع إلى التخلي عن فضائل غُرِسَت فينا منذ الصغر؟!

تجولتُ في السوق لا أعلم وجهتي، لاحظتُ حالةً من الركود العام، لا أحد يشتري أو يبيع، الباعة جالسون كأن على رؤوسهم الطير، لفت انتباهي رجلٌ يبيع ملابسه،

وأشياء ثمينة من أثاث بيته، وبعض مصوغات زوجته مقابل جِوال من الغلة، تأملت المصوغات فاغرًا فاهي من الصدمة؛ فهذه المصوغات قيمتها أغلى بكثيرٍ من جوال الغلة! على الأقل في زمني، هل فقد الناس عقولهم؟! علا ضجيج التاجر والرجل؛ اختلفا على حجم الجوال، فقد كان أصغر مما توقع الرجل لكنه رضى بالبيعة على أية حال، أعطى للتاجر زكيبة من الخيش بها الملابس المباعة، وحمل جوال الغلة بين ذراعيه كأنه يحمل ابنه يخشى عليه من الضياع أو السرقة. أما التاجر فألقى زكيبة الملابس جانبًا، تعلو ثغره ابتسامة ساخرة، وظل يتفحص المصوغات بانتصار.

تسللتُ ناحية الزكيبة وأخرجتُ منها جلبابًا، اختبأتُ خلف الدكان وارتديته؛ خوفًا من أن يلاحظ أحدٌ اختلاف هيئتي.

تجولتُ في السوق مهمومًا أفكر، ماذا تريد القارورة مني؟ وهل سأظل حبيسًا فيها للأبد! كالذين دخلوا دار شندي واختفوا وانقطعت أخبارهم؟! أم أنها ستريني بأسًا يُشقيني فأفقد عقلي وأعود بعدما تأكل من عمري الكثير، وأتجول في الشوارع كالمجاذيب؟!

ليتني ما دخلتُ دار شندي من الأساس، ربما تحمل حكايات جدودنا شيئًا من الصحة عن هذا الدار، ماذا لو لم أستطع العودة؟ سيخبرهم راضي أنني ضعتُ في القارورة، وأن كل ما يقصونه على آذاننا منذ الصغر حقيقة!

هناك زحامٌ شديد، سمعتُ ضجيجًا وصراخًا، وعلا الصياح، فتوجهتُ ناحية الصوت فإذا بامرأة واقفة على مصطبةٍ عالية في وسط السوق تصيح في الناس، قائلةً بصراخٍ هيستيري:

_ يا أهل القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر بالله الذي أسعد الله الناس في أيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار.

علت الهمهمات وتوالت الكلمات الغاضبة المستنكرة للوضع الذي آلت إليه البلاد، انقسم حال الرجال ما بين اليأس وقلة الحيلة، ناكسو الرؤوس ترهقهم ذِلة، استحال لون جلودهم إلى صُفرة ذبول أوراق الشجر، تعبث بهم رياح الجوع والعَوَز، لا يقدِر الواحد منهم على سد جوع بطون تعلقت في رقبته ولا حتى سد جوع نفسه! اقتربتُ من أحدهم يبدو نحيلًا، هزيلًا، أكل الزمن من روحه قبل جسده، سألته بفضولٍ:

_ ما بال المرأة التي تصيح؟

أجاب بخِزي ارتسم على وجهه:

_هذه امرأةٌ باعت عقدًا ثمينًا لها، قيمته تجاوزت الألف دينار لتشتري جوالًا من القمح؛ لتطعم أهلها، لكن الناس نهبوه منها وهي عائدة لدارها، ولم يتبق لها سوى ما يكفي لخبز رغيف واحد.

انعقد لساني وعجزتُ عن الرد، فضرب الرجل كفًا بكفٍ ومشى بعيدًا، تتبعته عيني من بعيدٍ، فإذا بالرجل يبحث في القُمامة علّه يجد شيئًا يؤكل!

الأمر أصعب مما تخيلتُ! الأزمة ليست فردية، إنها أزمة شعبٍ بأكمله، الآن أصبح جُل همومهم أن يجدوا ما يسد رمقهم، فَقَدَ كل شيءٍ قيمته إلا الخبز، اتجهتُ ناحية ذلك الرجل مرةً أخرى، وجلستُ بجواره فمسح فمه بأكمامه من بقايا طعامٍ حامض رائحته بشعة، سألته بفضولٍ:

_ما سبب تلك الأزمة من البداية؟

رمقني باندهاشٍ، ثم قال:

_يبدو أنك غريبٌ عن المدينة، ما الذي أتى بك إلى هنا في هذه الآونة العصيبة؟! ألم تعلم بالأزمة؟!

_لا، تفاجأتُ بالأمر، أخبرني عن سبب تلك الأزمة؟

تنهد ثم قال بيأسٍ:

_منذ تدخل السيدة رصد أم الخليفة المستنصر في شئون الدولة، وكل شيءٍ انقلب رأسًا على عقب، كانت تشرف على

تعيين الوزراء فمن استوحشت منه أوعزت بقتله فيُقتل، مما أثار الفتن، وعمت الفوضى، ومنه عم الخراب على الدولة كلها، انقسمت فرق الجيش من الترك والجند السودانيين بين مؤيدٍ ومعارض، فعاثوا في الأرض فسادًا، خربوا أنظمة الري وأفسدوا الأراضي الزراعية.

تنهد الرجل، ثم استطرد قائلًا:

_جاء نقصان مياه النيل لينذر بأزمةٍ عاتية، لم يعد لدينا ما يؤكل، مَن يتاجر في القمح يرفع سعره؛ لأنه يعلم مدى الاحتياج له.

قلتُ متعجبًا:

_ولماذا لم يحاول الناس إصلاح ما تم إفساده ومحاولة الزراعة من جديد؟

نكس الرجل رأسه حزنًا، ثم قال:

_يا سيدي، اختلف الوزراء فيما بينهم وضاع الفقراء في اختلافهم، الأمر يحتاج لوزيرٍ قوي يجتمع الناس حوله فيصلح ما أفسده غيره.

قلتُ مصدومًا:

_إنها كارثةٌ حقًا، لكن أين الخليفة من كل ذلك؟

_نفدت حلوله، خاصةً أنه انصاع لرأي وزيره؛ ولم يقم بتخزين الغلال في المخازن السلطانية هذا العام حيث تخزين القمح والغلال وتوزيعها على الشعب بأسعارٍ مخفضة؛ لمواجهة جشع التجار والقضاء على السوق السوداء، فاحتكر التجار الغلال وباعوها بأعلى الأسعار.

_الآن فهمتُ! جفاف مياه النيل، قنوات الري مخربة، ولا يوجد مخزون من الغلال الناتج الأخير مجاعة.

التقط الرجل شقْفة خبزٍ متعفنة من القمامة، مسحها بجلبابه، ثم دسها في جيبه، وقال متمتمًا:

_وهذه تكفي لسد جوع زوجتي.

هم واقفًا وانصرف مسرعًا كأنما وجد غنيمة.

لمَ قذفتني تلك القارورة اللعينة إلى هنا؟! لن أحتمل رؤية المزيد من الجوعى، أودُ العودة إلى داري، اشتقتُ إلى أمي كثيرًا، قمتُ من مكاني مهمومًا، كان هناك حشدٌ كبيرٌ

من النساء والرجال، شققتُ الصفوف بينهم، فإذا بامرأةٍ تحاول الهرب من الحشد بصعوبةٍ، الرجال تنهال عليها بالسباب والنساء بالضرب حتى استطاعت الفرار من براثنهم، مرت بجواري بسرعةٍ متخفية منهم، ولم تُعيرني انتباهًا، توقفت فجأة ثم التفتت للخلف جذبتني من ذراعي تجرني بعيدًا عن الحشد ثم توقفت لاهثة، رمقتني بنظرة لهفةٍ لم أفهمها ولم يكن يظهر من وجهها سوى عينيها الدامعة، رفعت البُرقع الذي كان يخفي وجهها،

ثم قالت مستغيثةً:

_رحيم!

تأملتُ وجهها المألوف لعيني غير مُصدقٍ، يبدو أنني أهذي، شخصتُ بصري فيها مجددًا، حبات النمش المنثورة بعناية على خديها كحبات اللؤلؤ، عيناها الواسعتان المحلاة بلوْن القهوة، ابتسمتُ وقلتُ:

_نبرة!! هل أنتِ نبرة حقًا؟

نبرة ابنة شيخ قريتي، والتي يميل لها قلبي منذ زمنٍ، كلما تقدمتُ لخطبتها رفضني والدها؛ لأنه يرغب في تزويجها من ابن عمها حتى لا يخرج إرثهم للأغراب، تمنيتُ لو تنازلت عن ذلك الإرث من أجل زواجنا، لكن أباها حاد الطباع لن يفهم ما يربط قلبينا.

سألتها بحيرةٍ:

_كيف جئتِ إلى هنا؟! أم أنني أحلم؟

قالت والدموع تتسابق إلى وجنتيها:

_القارورة التي جاءت بي وبك إلى هنا، قارورة شِندي اللعينة.

حاولت تهدئتها، ثم سألتها:

_هل توصلتِ لسبيل العودة؟

هزت رأسها نافية بيأس، فقلتُ:

_أخبريني عن أي شيءٍ تعرفينه؟

قالت بيأسٍ:

_لقد قذفتنا القارورة في عهد الخليفة "أبو تميم مُعد المستنصر بالله الفاطمي"، تحديدًا في السبع سنوات العجاف.

انعقدت حاجباي، ثم قلت مندهشًا:

_وكيف عرفتِ بذلك؟

_أنسيتَ أنني أدرس التاريخ في الجامعة؟!

اضطربت ملامحها، ثم قالت بحزنٍ:

_إننا نعيش الآن أزمة الشدة المستنصرية (الغلاء الذي عظم أمره، وشنع ذكره، وامتد أمده سبع سنين) **المقريزي***

لابد لنا من العودة سريعًا وإلا سنموت هنا جوعى.

أخافتني كلماتها وازددتُ خوْفًا عليها، تذكرت الحذاء النسائي الذي رأيته بجوار القارورة فابتسمتُ أن جمعني بها القدر هنا في هذا الضياع! وأنا الذي حاولتُ أن يجمعنا بيتًا آمنًا في زمننا! ربما أرسلني الله لأكون سبب أمانها ونجاتها، أو جمعها بي لتؤنس وحشتي في هذا الضياع كما آنس وحشة آدم بحواء، أو لأنني أحبها دون غيرها!

تنحنحت فأخرجتني من شرودي، فسألتها:

_أين تقيمين؟

فقالت:

_ليس لدي مأوى، أختبئ في أي زقاقٍ ضيق لا يراني فيها أحدٌ حتى يطلع النهار، أتجول في الشوارع طيلة اليوم حتى تتورم قدماي وتُقرقر معدتي من الجوع، فأبحث عن أي شيءٍ يؤكل.

سألتها بفضولٍ:

ولماذا انهال الناس عليكِ بالضرب والسباب؟

احمر وجهها خجلًا، ثم قالت بحرجٍ:

_أنا جائعةٌ، سرقتُ من إحداهن رغيف خبزٍ، فكشفت فعلتي وصرخت وانهالت عليّ بالضرب، فاجتمع الناس حولنا، وحينما انتبهوا أنها تحمل مِشنة خبزٍ هجموا عليها لينهبوه منها.

سَكَتَت قليلًا ثم انحنت رأسها لأسفل من شدة الخجل، وأكملت:لم أقصد فعل ذلك، لم أجد طعامًا ليسد جوعي فسرقت.

قلتُ لها مهونًا:

_لا تحزني، فقد فعلتها قبلك، ولا أعلم كيف!

ذهبنا معًا إلى مخبزٍ قريب، حاولتُ جذب انتباه صاحب المخبز وأفاوضه أن يبيع لي رغيفًا بنصف ثمنه، مما أثار غضبه وكادت الأيدي أن تشتبك، وانهال لسانه بسلسالٍ من الألفاظ البذيئة، بينما قامت هي بسرقة الخبز بخفةٍ وابتعدنا عن المكان، تقاسمناه وكانت تلك أول لـُقمةٍ تجمع بيننا، تمناها قلبي وقد جعلها ربي حقًا.

حدثتها عن الأمور الغريبة التي رأيتها حولي، وأن الناس يبحثون في القُمامة عن أي شيءٍ يؤكل، أخبرتني أن المال فقد قيمته بالمقارنة برغيف الخبز، المال لم يعد يهم،

الأهم الآن الحفاظ على مخزونٍ كبيرٍ من القمح لتضمن البقاء حيًّا في الأيام القادمة.

مرت بجوارنا امرأةٌ يبدو على ملابسها الثراء، بينما شحب وجهها ويبدو الهزال على جسدها، تترنح من فرط ضعفها، وقفت في منتصف السوق، جاهدت لرفع صوتها المبحوح:

_يا قوم، هذا ربع جوهر من اللؤلؤ، مَن يأخذه مني ويعطيني عوضه قمحًا؟

لم يلتفت أحدٌ لندائها، وكأن البطون صمّت الآذان، طغى صوْت الجوع وأنسى الناس ملاذ الحياة، ظلت تنتقل بين الناس بيأسٍ وقلة حيلة طالبة ولو ربع جوال من القمح مقابل ربع الجوهرة، فلم يلتفت إليها أحد.

ألقت اللؤلؤ في الأرض، وقالت بانكسارٍ ووجهٍ مبتل بالدموع:

_ إذا لم تنفعني وقت الضائقة فلا حاجة لي بك.

قالتها وغادرت، وقد بلغ الضيق منها مبلغه، العجيب أن اللؤلؤ ظل ملقى على الأرض ولم ينحني أحدٌ ليلتقطه، أصبحت قيمته كحبات الرمال، ولو كان في حجمه قضمة خبزٍ لتزاحم حوله الناس لينال كلٌ منهم منه، ضاعت قيمة كل غالٍ ونفيس.

الفصل الثالث

عندما تدق ساعة الجوع

لا طعام سيء.

مرت أيامٌ وربما أشهر، فقدنا الإحساس بالزمن كأننا في حُلمٍ طويلٍ لا نفيق منه أبدًا، أو أن أحدًا منا يعيش في ذاكرة الآخر، أو كلانا يعيش في ذاكرة شندي ذاته.

اشتدت الأزمة، ولم يعد هناك غلال أو خبز، تفشت حالةٌ من القحط، الكل يبيع ما لديه مقابل حفنة قمحٍ أو قضمة من رغيف، الأجسام هزيلة ضعيفة لا تقوى على الحركة، خِماص البطون، شاحبي الوجوه، غائري العيون، بينما أنا ونبرة لم يتغير فينا شيءٌ، نشعر بالجوع مثلهم لكن أجسادنا تتمتع بصحتها كما كنا عليه من قبل مما يثير فضول من يرانا، لماذا لم يصيبنا هزال أو شحوب؟! يظن البعض أننا نُخبئ جِوالات من القمح نقتات عليها، ما جعلنا نغير أماكن اختبائنا من حينٍ لآخر، أو نختبئ في أحد الزقاق المهجورة، وازداد خوْفي على نبرة أكثر.

مرت أسابيع ولم توقد قِدرٌ واحدة في البيوت، علا صياح الأطفال من شدة الجوع، تسمع الصراخ كأنما طبول

الموت تعزف ألحانًا مخيفة تثير الذعر في النفوس، مقطوعة موسيقية شنيعة دقت أبوابًا كثيرة، ازداد الوضع قحطًا وسوءًا، وزاد معه خوْفنا من أن نضيع في ذلك العالم الموحش ولا نستطيع العودة أبدًا.

جذبتني نبرة من أكمامي مشيرة بسبابتها إلى فمها تحثني على الصمت؛ فاتبعتُ خطواتها بحذرٍ، اختبأنا خلف أحد الجدران المهدومة، رأيتُ ما لم يستطع عقلي تصديقه.

رجلٌ يجلس بجانب كوْمة من القُمامة، وأمامه كلبٌ مذبوحٌ يسلخ عنه جلده، ثم يضعه على خشبٍ محترقٍ ليشويه!! وما أن انتهى من طهوه؛ التهمه كغولٍ انقض على فريسته بوحشيةٍ متلذذًا بها.

شعرتُ بالتقزز الشديد والاشمئزاز، وابتعدت نبرة لتفرغ ما في معدتها الخالية لو كان بها بقية من طعام أسبوع مضى!

يا له من منظرٍ مقزز! تكرر ذلك المنظر الشنيع أمامنا كثيرًا من أشخاصٍ مختلفين حتى صار الأمر معتادًا، أن تجد أحدهم يلتهم قطًا، أو كلبًا بين أنيابه، أو حتى فأرًا بمنتهى التلذذ!

وحوشٌ آدمية تلتهم لحوم الحيوانات والحشرات متخليين عن فطرتهم الآدمية. أسكت صوْت الجوع كل أصوات الإنسانية والتحضر، دعس كل ما تبقى في عقول الناس من الفطرة التي فُطِروا عليها دون وعيٍ منهم، استسلم الجميع وأكلوا كل ما هو حي بل وأكلوا الجيَّف!

فإذا وُجد الجوع ذهبت المبادئ، وتبخرت القيم، وتحجرت القلوب، وأصبحت معاني الإنسانية مصطلحاتٍ نظرية لا معنى لها.

أصبح الناس كأشباحٍ تتجول، كل ما يشغل عقولهم هو تدبير ما يسد جوعهم المُضني.

الغريب أنني كلما رأيتُ أحدهم يأكل لحم الكلاب يسري في نفسي فضولٌ لتذوق ذلك اللحم! يبدو أنه بسبب شدة جوعي طابت نفسي لأكل أي شيءٍ حتى لو كانت جثة كلبٍ متعفن، أنا صرتُ مثلهم تمامًا، الجوع والعَوَز أنساني خصالي الحميدة.

أصبحت روحي متعبةً لهوْل ما رأيتُ، كلما زادت الشدة كلما زاد جشع واستغلال الناس للأزمة أكثر، حتى أن الكلاب والقطط بيعت بثماني دنانير! رغم أن بائع اليوم هو جائع الغد لكن لم يعد يهم؛ فالاستغلال مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالأزمات.

نظرتُ إلى نبرة التي كساها الهم والغم، وأصبح الصمت المطبق من شِيَمها، كلما لدغها الجوع صبَّرتها بالعودة القريبة إلى زماننا ونسيان كل ذلك، لكننا لن ننسى!

نسير بخُطى ضائعةٍ بين أشباه البشر، أجسادٌ نحيلة لا تقوى على الحركة، جلسنا بجوار نافذةٍ مفتوحة في أحد الأزقة يتوارد إلينا صرخات طفلٍ رضيعٍ يبكي بضعفٍ،

صوته بالكاد يُسمع كأنه يحتضر من شدة الجوع، أمه ملقاةٌ بجواره لا تقوى على الحركة، عيناها عبارة عن كرتين جاحظتين شاخصة في السقف، وشفتاها بيضاء متشققتان من شدة الضعف، امرأةٌ كعود القش، ضعيفة لا تملك قطرة لبنٍ واحدة لترضعه، أثداء المرضعات في هذا الزمن فارغة، هناك كلبًا نحيلًا يأكل قطعة لحمٍ داخل الدار، من أين له بها! انتفضت ذعرًا حينما وجدتُ ملابس الطفل ممزقةً بها آثار دماء، إنها من هذا الجسد الضعيف، إنهما يموتان ببطءٍ، أو بالأحرى ماتت الأم بينما الطفل ما زال يصارع الموت، إن لم يقتله الجوع؛ سيأكله الكلب!

لم أحتمل المنظر، فكرتُ في الدخول لإنقاذ الطفل، لكن يبدو أن القرار جاء متأخرًا بعدما غاب صوْت الطفل تمامًا ولم يعد يتحرك، فارق لاحقًا بأمه، الناس يموتون في صمتٍ دون أن يشعر بسكراتهم أحدٌ، وربما لم تتحلل أجسادهم لأنهم قد يصبحون طعامًا سهلًا لغيرهم.

جذبتُ نبرة من يدها قبل أن تلاحظ ما رأيته وابتعدتُ، الموضوع بالنسبة لنا أشبه بكابوسٍ مشتركٍ نعيشه معًا ولا أدري متى سنفيق منه.

خلت الشوارع من القطط، والكلاب، وحتى الفئران، لم يعد هناك ما يؤكل، ازدادت الوفيات حتى أننا شهدنا أُسرًا كاملةً تموت في ليلةٍ واحدة!

بينما كنا جالسين في أحد الأزقة تدارك إلى مسامعنا استغاثة رجلٍ يتوسل لأحدهم أن يتركه، اختبأنا كعادتنا خوْفًا من مصيرٍ مجهول، شاهدنا أحدهم يربط رجلًا في صخرةٍ كبيرةٍ ثم شرع في ذبحه، فرت صرخةٌ من نبرة سارعتُ بكتمها بيدي خوْفًا من أن يرانا الرجل، تسارعت ضربات قلبي خوْفًا وأنا أرى الرجل يقطع من لحم الآخر قطعًا كبيرة ويضعه في قِدرٍ ليطهيه، حتى ظننتُ أن ضربات قلبي كطبولٍ رنانة قد يسمع بها ويأتي ليذبحنا لنصبح وجبةً دسمة له.

إنه يتلذذ بالتهام اللحم البشري كأنه تعود على فعل ذلك، كان الأمر بشعًا للغاية، صادمًا إلى أقصى درجةٍ يمكن أن يتخيلها عقلٌ! لم أتعجب من الأمر خاصةً بعد ازدياد حالات اختفاء كثيرة.

فقدت نبرة وعيها من هوْل ما رأت، حملتها بعيدًا وأيقظتها، فبكت بشدةٍ وارتعش صوتها باكيةً كنحيب الأطفال، ظلت تتحدث بكلماتٍ متقطعةٍ انصهرت لها روحي حزنًا عليها.

الجميع يبحث عن النجاة من الموت حتى لو وصل الحال إلى أن يأكل جثةً متعفنةً، أو يصطاد إنسانًا مثله فيقتله ويحصل على لحمه متخليًا عن آخر ما تبقى من إنسانيته، المهم البقاء على قيد الحياة.

ازدادت الجرائم وتفشت الأمراض مما زاد الأمر سوءًا حتى أن عدد السكان قلَّ كثيرًا، وكلما ازدادت الأزمة كلما زاد الاستغلال، فقد قُبض على أحدهم يختطف النساء والأطفال ويقتلهم ليبيع لحومهم.

كنا نتجول في السوق الذي تبدّل حاله إلى قبورٍ موحشة لعلنا نجد مهربًا إلى عالمنا، دوى صراخ لامرأةٍ فاقتربنا قليلًا منها لنعلم ماذا أحل بها، فقالت بذعرٍ:

_ضاعت ابنتي، إنها في الحادية عشرة من عمرها وبشرتها سمراء، هل رأيتماها؟

هززنا رأسنا نفيًا، فتابعت المرأة قائلةً بعويلٍ:

_أخشى أن يأكلها الذئاب الآدمية، ولم يعد لي من أهلي أحدٌ غيرها، قضت عليهم الملاريا والجوع.

ظلت تكرر جملتها السابقة وتبحث حولها بجنونٍ، كادت تفقد لُبها، لم تعد قلوب الناس تتحرك لمثل ذلك المشهد، لم يتحرك أحدٌ ليبحث عن ابنتها؛ فمصيرها محسومٌ، لا يوجد أي احتمالاتٍ لاختفاء الطفلة سوى أنها خُطِفت وقُتلت وأُكِلَت! يبدو أنها صيدٌ سهلٌ لأحدهم، كل شيءٍ جائز في ذلك الزمن.

جاء صوت منادٍ من بعيدٍ ببيانٍ للناس:

_ يا أهل القاهرة الكرام، اسمعوا هذا البيان، سُرِقت بغلة الوزير، ولمن يجدها له مكافأة رغيفان.

تناثرت الأقاويل وزادت الهمهمات، الجميع عزم على البحث عن البغلة، والأغلبية سيبحثون عنها ليقاسموا السارق فيها!

مرت امرأةٌ بدينةٌ بجواري وخلفها ثلاث فتيات، استوقفتني، ثم قالت:

_ جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم، هل تشتري؟

بُهت وجهي حينما فهمتُ مقصدها، فقلتُ:

_وهل يُباع الحرائر يا سيدتي؟!

تنهدت المرأة، ثم قالت:

_لم أعد أقدر على إطعامهن، خذ إحداهن هدية.

_هذا حرام، عودي إلى دارك أكرمكِ الله.

تركتها وتابعتُ السير، فاقتربت من رجلٍ آخر لتبيع ابنتيها له! لم أصدق أن يعود زمن بيع الأحرار، وتُباع الفتيات المراهقات بثمنٍ بخسٍ، المهم أن يتخلصوا منهن!

حاولتُ أن أصرف تفكير نبرة عن ذلك الأمر فجلسنا بجوار بابٍ خشبي كبير نتحدث في أمر بغلة الوزير، سمعنا صرخة طفلةٍ، ثم انقطع الصراخ فجأة، تبادلنا النظرات وأدركنا ما يحدث داخل ذلك الدار، نعلم جيدًا أن الابنة المخطوفة بالداخل، ربما قتلها أحدهم ليسد جوع أبنائه في نفس عمرها! بل وربما يذبح المرء أحد أبنائه ليسد جوع إخوته الآخرين. هذه الأزمة تراهن على قدرة الفرد في التعايش مع الوضع الجديد، والبقاء لمن يتكيف بسرعة.

أمٌّ تبحث عن ابنتها المخطوفة بقلبٍ منفطر، وأخرى تبيع ابنتها ولو بقضمة خبزٍ!

قمنا وابتعدنا عن ذلك الدار، لم يجرؤ أحدنا على التفوه بما جال في خاطره فوْر سماع صرخات الطفلة، كظمنا مرارة الخوْف داخلنا، حاولنا متابعة الحديث فلم نستطع، كلانا يعلم أن الأمر يصعب تخيله فماذا لو عايشناه، لم تكن تلك الواقعة هي الأولى من نوعها، بل أصبح الأمر مألوفًا أن

يختفي النساء والأطفال بكثرة، أصبحت تجارة البشر أمرًا متداولًا سرًا واستباحه الكثيرون، ساقتنا قدمانا إلى أحد الأزقة التي تتميز بانخفاض منازلها، سرنا كأصنامٍ متحجرةٍ عاجزة عن رفض الواقع الأليم مكبلة بقيودٍ لا نعلم متى ستنفك عنا، أو حتى كيف نغير ذلك، إننا ندفع ثمن ضريبة الفضول، علينا أن نتحمل. فجأة سقط خُطافٌ من أعلى منزل مجاورٍ قاصدًا نبرة فعانقتها وانبطحنا أرضًا؛ لنتفادى الخُطاف، ثم أسرعنا بالهروب منحني الظهر لاهثين؛ حتى لا ينتشلنا خُطاف آخر غير مصدقين أننا أصبحنا فريسةً مغرية، كونك تسير على الأرض يجعل منك فريسةً سهلة الصيد، إنه زقاق الموت! يصطادون الناس من أعلى المنازل؛ ليسدوا نهمهم ويبيعوا ما فاض منهم سرًا، إنه الاستغلال في أحقر صوره!

اختبأنا في إحدى الأراضي المهجورة خلف صخرةٍ كبيرة، جلست نبرة وبكت بكاءً تقطعت له نياط قلبي، حاولتُ تهدئتها وكنتُ أحتاج لمن يُطمئنني، ابتلعت خوْفي في

حلقي وتظاهرتُ بالصلابة، وكنتُ هشًا من الداخل، سألتها:

_في أي مكانٍ قذفتكِ القارورة بالتحديد؟!

أجابت بصوتٍ متقطعٍ من شدة البكاء:

_أمام بوابة المدينة.

قلتُ محاولًا تهدئتها:

_ربما ستكون العودة من نفس المكان، دعينا نبحث هناك عن شيءٍ يشبه القارورة؛ لعلها السبيل للعبور إلى عالمنا.

نظرت لي بيأسٍ، ثم قالت:

_أود أن أخبرك بشيءٍ يا رحيم.

قلتُ مداعبًا محاولًا تغيير حالة الحزن التي نحن عليها:

_ألقي ما في جُعبَتِك، كُلي آذانٌ صاغية.

قالت بارتباكٍ:

_أنت لم تأتِ هنا بمحض الصدفة.

لم أفهم ما ترمي إليه، فسألتها بحيرة:

_كيف ذلك؟

قالت بخوْفٍ ممزوجٍ بخجلٍ:

_لقد استدعيتك قبل عبور الفُوهة.

مرت لحظات صمتٍ لم أستطع تحديد شعوري حينها، هل يعتريني الفرح لاستدعائها لي دون الآخرين؟! أم أحزن على ما آل إليه أمرنا؟! هل استدعتني لأنها تحمل في قلبها شيئًا ناحيتي؟ أم مجرد اسمي تردد في ذهنها في لحظة تخبطٍ لا تدري بأيهم تتشبث فجرى اسمي على لسانها بمحض الصدفة؟!

الشيء الوحيد الذي كنت متيقنًا منه قبل عبوري للقارورة أن قلبي لم يعشق سواها، رغم رفض والدها لي! الآن أصبحت متأكدًا أنني -على الأقل - لستُ بالنسبة لها كالآخرين، وربما سرى الحب مني إليها فبادلتني ما أكنه لها، ابتسمتُ بهدوءٍ ثم قلتُ:

_كيف فعلتِ ذلك؟

أجابت بترددٍ:

_كثيرًا ما جذبني فضولي ناحية دار شندي، كنت أشك أن وراؤها سرًا عظيمًا، انتهزتُ فرصة هدوءٍ قبل اشتداد ظلمة الليل وتسللتُ إلى الدار، شعرتُ بالخوْف في بادئ الأمر، لكن بعدما وجدتُ القارورة طغى فضولي على خوْفي، وبعد تفحصي لها وجدتُ بجانبها مخطوطةً مكتوبًا عليها:

« اخلع نعليك؛ هنا دُفِن التاريخ، فلتستدعِ مَن شئتَ لمرافقتك »

لم أفكر كثيرًا، خلعتُ نِعَالي وقفزتُ داخل فُوهة القارورة، شعرتُ أنها تجذبني بشدةٍ وانتابني الخوْف الشديد، حاولتُ الخروج فلم أستطع فاستغثتُ بك، ظللتُ أنادي باسمك حتى وجدتني ملقاةً على الأرض هنا.

شعرتُ بالتخبط والحيرة من أمرها، أخفضتُ بصري عنها؛ حتى أخفي ما تبوح به عيني، أحاول كبح جماح الكلمات التي تندفع لتتحرر من قلبي إليها، تدفقت العاطفة

إلى قلبي فكَبَلته وجعلته أسيرًا لها، قلتُ وأنا أجاهد من أجل تشتيت نظراتي عنها لكي لا يفتضح أمري أكثر:

_استدعاؤك لي يدفعني للصمود حتى تعودي سالمةً إلى دارك.

قالت بخجلٍ ممزوجٍ بيأسٍ:

_هل حقًا سنستطيع العودة؟

قلتُ محاولًا بث الطمأنينة داخلها:

_نعم، جمعنا الله في هذا المكان ووحده قادرٌ على إعادتنا لزماننا مرةً أخرى.

قطع حديثي صوْت خطواتٍ تبتعد شيئًا فشيئًا حتى تلاشت، لم نبحث عن أثار الأقدام كثيرًا، فرائحة الشواء التي فاحت حولنا داعبت أنفي من مكانٍ قريبٍ فاتبعت الرائحة، يبدو أن أحدهم انتهى من التهام فريسته البشرية للتو! تأكدتُ من خلو المكان ثم اقتربتُ ناحية بقايا الشواء، عظام طويلة بها بقايا قطع لحمٍ متناثرة، وبالتأكيد ليست بعظام حيوان، الجوع يفتك بمعدتي التي لا تكف عن القرقرة تحثني على تذوق اللحم، قربتها من فمي بيدٍ مرتعشة، لا فارق في الشكل بين لحم الإنسان ولحم الحيوان؛ فكلاهما سيسد جوعي على أية حال، أما بالنسبة للطعم فلست متأكدًا. سمعتُ أحدهم ذات مرةٍ يقول أن لحم الإنسان يشبه لحم الخنزير بعد الطهي، لكنني لم أذق الاثنين قط على أية حال، قرّبتها من فمي كِدتُ أتذوقها لولا شهقةٌ أصدرتها نبرة بخوْفٍ:

_رحيم، أرجوك لا تفعل.

نظرتُ إليها بضعفٍ وقد هزمني إحساس الجوع، تناسيتُ أنها لحم إنسانٍ مثلي، لكن إحساس الجوع فتك بي، دفعني لفعل ما لم يتخيله عقلي يومًا، تصبب العرق من جبيني ناظرًا إليها بتوسلٍ، اقتربت نبرة مني ثم دفعتها من يدي بحزمٍ فسقط اللحم أرضًا، رمقتني بنظرة خوْفٍ وذعرٍ لم أتحملها، ابتعدت عني بضع خطواتٍ للخلف، تعثرت في طرف ردائها فسقطت أرضًا، مددت يدي إليها لأساعدها في الوقوف فتكورت حول نفسها تُخبئ وجهها بين كفيها، هل تخشاني؟! هل تخاف أن آكلها؟! هل تراني وحشًا آدميًا يمكن أن يفتك الجوع به فيؤذيها؟! ضغطتُ بيدي على معدتي والأسى يعتري قلبي.

منذ أن وطئت قدمي هذا المكان وانقطعت صلتي بنفسي وبمبادئي؛ سرقتُ حتى أشبع! كان بيدي قطعة خبزٍ ولم أُعطِها للمرأة الجائعة! تلاشت صفة الكرم والأمانة داخلي وقتلني اليأس، كدتُ آكل لحمًا بشريًا ليسد جوعي! هل محَى الجوع أخلاقي؟! لم يكن أمامي سوى بابٍ واحدٍ لا

ينغلق أبدًا مهما ضاقت السبل، جثوتُ على ركبتي ورفعتُ يدي للسماء، وقلتُ باكيًا:

_ يا رب، كيف أضيع في ملكوتك وأنت القادر على ردي إلى داري وجمعي بضالتي! كيف أكون تائهًا في الكوْن الفسيح وأنت وجهتي وقِبْلتي. يا رب، ردني إليك.

الفصل الرابع

الجوع لا ضمير له!

شارلي شابلن

في الصباح عزمنا الأمر على التوجه إلى المكان الذي قذفتنا فيه القارورة، مشينا بخطواتٍ متثاقلةٍ محبطة، لا نعلم إن كان هناك نجاتنا أم لا؟ لكننا نتعلق بالقشة على أية حالٍ؛ لعلها تنقذنا من أمواج الأزمة العاتية، وفي طريقنا كان هناك تجمعٌ مهيب وعددٌ كبيرٌ من الحراس، شققت الزحام حتى لاحت لي حبالٌ متدليةٌ من بوابة المدينة، يبدو أن أحدهم حُكم عليه بالإعدام شنقًا.

اقتربتُ من أحد الرجال، حاله كحال الضعفاء يتمنى التحرر من بطش الجوع، يضرب كفًا بكفٍ ويقول بضجرٍ:

_ إعدام ثلاثة رجالٍ من أجل دابة الوزير! فاسألوا الوزير ما بال البطون التي نهشها الجوع؟ لو كان هناك ما يسد رمقهم لما سرقوا، ثلاثة رجال بدابة!! الغوث يا رب الغوث.

التف الناس في مشهدٍ مهيبٍ يشاهدون الحراس وهم يدفعون ثلاثة من الرجال الذين غزا الهزال أجسادهم وأحكم قبضته عليهم، اختفت أعينهم في محجريها من شدة

الضعف، يجرونهم إلى منصة الإعدام، ترى في أعينهم نظراتٍ خاوية لا اعتراض على ما سيأوي حالهم إليه، كأنهم آمنوا أن الموت سيريحهم من الجوع ومرارة تلك الأيام الثقال.

شقت مرارة الظلم طريقها إلى حلقي، أم أنها لعنة الجوع فرت من أجسادهم الهزيلة لتذيقني وكل مَن يشهد إعدامهم مرارة عيشهم وسوء الميتة!

سكت الجميع لا تسمع حتى الهمس، الكل يتحسر داخله، ولو نطقوا بما يجيش في صدورهم سيصرخون قهرًا، يرون الموت أمام ناظريهم ويتظاهرون أنهم أحياء!

يتساءلون في صمتٍ؛ متى سيزول الليل المعتم وتشق الخيوط البيضاء سماء الجوع، الكل يتمنى فجرًا يمهد أن النهار آتٍ لا محالة، حتى لو طالت عتمة الليل.

مرت ثوانٍ قليلة وفاضت أرواح الرجال الثلاثة إلى بارئها، نجوا من ظلمات الأرض فارين إلى عدالة السماء، وربما كان الموت خلاصًا لهم من الجوع، قطعة لحمٍ أودت بحياتهم!

دمعات متتالية شقت طريقها إلى وجنتي نبرة، أفواهنا مستسلمة للجام الخوْف، لم أستطع حتى أن أبثها الطمأنينة.

قلَّ الازدحام حولنا ولم نستطع العبور خارج أسوار المدينة، جلسنا على أحد المصاطب بجوار أحد البيوت مُطبقين الفم وكأن على رؤوسنا الطير. داعبت أصابعها الحصى الصغير الملقى بجانبها وهي تتابع المرأة التي تقوم بغلي المياه من أجل تنقيتها من الخضرة الطحلبية التي انتشرت في مياه النيل، بعد ما قلَّ منسوب النيل حتى أنه بلغ عمقه ذراعين، وظهر في وسطه جزيرةٌ عظيمةٌ من شدة ضحالة المياه، ولم يأتي غليان الماء بفائدة، فما زال طعمه ورائحته بها شيءٍ نتن.

قالت نبرة بشرودٍ وبصرها مُعلق على قِدر الماء:

_ليتني ما اتبعت فضولي، ولم أدخل دار شندي من الأساس.

قلتُ مهونًا:

_لا تُحملي نفسك فوق طاقتك، فلربما نجد الحل قريبًا.

قالت بشرود:

_الأمر أصعب مما تخيلتُ، كنتُ أعلم الكثير عن الشدة العظمى، ظننتُ أن الكتب تُبالغ في نقل الأزمة لكن الحقيقة أصعب بكثير، والأصعب أن تعيشها بتفاصيلها! أصبحتُ عاجزة غير قادرةٍ على التفكير، لا بد لنا من مخرج.

ضيقتُ عيني وقد لاح لي بصيص أملٍ من بعيدٍ، سألتها مستفسرًا:

_أخبريني كيف انتهت تلك الشدة؟

نظرت إليَّ باهتمامٍ وقد فهمت ما أرمي إليه، وقفت ودارت حول نفسها، وقالت بحماسٍ طفولي:

_ بدر بن عبد الله الجمالي، أمير جيوش الشام، إنه مَن يملك مقاليد الحلول، سيصلح قنوات الري التي أفسدها الجنود المخربين، وسيطردهم من البلاد، وسينهض بالزراعة، وستفيق البلاد من كبوتها.

نظرتُ إليها باهتمامٍ مصطنعٍ، وانتابتني نوبة من الضحك:

_أتعلمين يا نبرة؟ أخشى أن نكون عالقين في ذاكرتك أنتِ لا ذاكرة شندي.

ضحكت بخجلٍ، ثم جلست بجواري وتنهدت وهي تسند ظهرها للحائط، وقالت:

_لم أشعر باليأس هكذا من قبل!

حاولت التخفيف من حدة الأمر رغم الخوْف الذي لم يبرح حتى يفتك بقلبي، فلم نعد نأمن النوْم في الزقاق المهجور حتى لا تتوالى علينا الخطاطيف وفخاخ الصيد، السير على الأرض قد يودي بحياتنا، أصبحنا نختبئ في أسطح المنازل المهجورة، ورغم ذلك لا نذق طعم النوم! أصوات الصراخ التي تشق سمعنا من حينٍ لآخر تنذرنا باقتراب صائدي البشر، نخشى أن يعلو صوت أنفاسنا في الليل حتى لا يسمعوها فيقتلوننا، لكننا نحاول النوْم على أية حال، كاد العقل أن ينفجر لولا الهروب من الواقع بالنوْم، ولا نوْم مع الجوع، الضغوط تجعلك كعود الثقاب؛ إذا احتك بك شيءٌ اشتعل واندلعت ناره، ننام هروبًا من كل

شيءٍ، ننام لنعطي لأرواحنا الفرصة للانعزال عن فوضى الحياة، ننام لنسكن اللا وعي، لنصبح اللا شيء، تدثر بأحلامك جيدًا حتى لو خذلك الواقع! ولكن أي واقع! هل ما نعيشه الآن واقع أم خيال؟ كل ما نمر به لا يصدقه عقل، المنازل تفوح منها رائحة الموت وبقايا الجثث المتعفنة، إنهم يشمون رائحة اللحم البشري ويتفقدون مكانه ليفتكوا به.

الفصل الخامس

الأخلاق تتآكل في الفقر

كما يتآكل المعدن

الذى يقطر فوقه الماء.

أحمد خالد توفيق

في الصباح الباكر، استيقظنا بجسدٍ متعب، متثاقل، ملئ بالهموم والخوْف، راقبنا الطرقات من أعلى سطح المنزل الذي اختبأنا به، بدأ بعض المارة يجوبون الشوارع، فعزمنا على التوجه ناحية بوابة المدينة؛ لعلنا نفر من تلك الأهوال.

اقتربنا من البوابة وقد علت أصوات صياحٍ وضجيجٍ ناحية السور المعلق عليه الرجال الثلاثة، فاتجهنا ناحية الصوْت، الحراس في كل مكانٍ، الناس في حالة هياجٍ وذعرٍ، التفتُّ ناحية الثلاث جثثٍ المعلقة شخصتُ بصري فزعًا، لم أصدق ما رأيتُ! الرجال الثلاثة عبارة عن هيكلٍ عظمي سُرِق لحمهم من أجسادهم، لم يتبقَ سوى الرأس، وعظام اليد والساق، لقد أكلهم الناس!

أي هوْلٍ أراه بعد ذلك! كيف وصل الناس إلى ذلك الحد؟ صاروا وحوشًا آدمية تمتلئ بطونهم بلحوم بعضهم البعض، تحجرت قلوب الناس وبرزت لهم أنياب، لم يعد هناك صالحين يتعففون عن أكل الجيف ويرضون بالموت

جوعًا بدلًا من أكل لحم إخوتهم الذي حرمه الله عليهم، حتى وإن كان هناك بعض الصالحين أغلقوا عليهم ديارهم يصبحون فريسةً ضعيفةً سهلة الأكل لغيرهم، قطع شرودي تقيؤ نبرة من هوْل ما رأت، أسندتها إحدى النساء وعيناها مثبتة على ما أخرجته نبرة من أحشائها، ربتت على كتفها، ثم قالت:

_لم يخرج من جوفك سوى عصارة معدتك، إنكِ يا بنيتي من الصالحين الذين تعففوا عن أكل اللحم الحرام.

قالت نبرة بصوتٍ مختنق بالبكاء:

_وأنتِ؟!

أجابت المرأة بشيءٍ من الحسرة:

_أكلت قططاً، كلابًا، خيولًا، وحتى فئرانًا لكن لم يدخل معدتي لحم إنسانٍ مثلي قط، حتى لو مِتُ جوعًا.

سكتت قليلًا، ثم أكملت بحزنٍ:

_أكل زوجي ابنتي الرضيعة، وأهلَكه المرض، ومات سامحه الله، لم يبقَ من أهلي أحدٌ، علَّمَني ألا اتكئ على

أحدهم فربما السند أعوج، ولمَ أعش وحدي في هذا العالم المظلم! الموت جوعًا سيكون راحةً لي على أي حال.

قالتها وانصرفت تاركةً عقولنا تردد صدى صوتها داخلنا، هناك مَن امتنعوا عن أكل لحوم البشر خوْفًا من عقاب الله وأخرون امتنعوا ليقربهم امتناعهم من الموت وينتهي كل شيءٍ، كيف تتحدث بكل تلك البساطة رغم الفواجع التي تعرضت لها بعد ما ذاقت مرارة الخذلان؟! كيف تلقت صدمة أكل زوجها لابنته؟! كيف تحملت مرضه ثم موته تاركها بمفردها تواجه قساوة العالم بجمود؟!

ماذا لو أصاب غيابهم وقت الاحتياج لهم؟! إنها تسير كالأخريات دون أن تهتدي بشيءٍ، أزاحت البوْح جانبًا ورفعت راية الكتمان والصمت، وابتغت بين ذلك سبيلًا، لا فارق بالنسبة لها بين الحياة والموت، قد يبكي داخلها كل شيءٍ إلا عينيها، نظرات جامدة خاوية لا حزن فيها ولا فرح.

جاء رجلٌ من بعيدٍ يتلّفت حوله، وجهه دائري ليس بشاحب أو هزيل، تبدو علامات الصحة على وجهه الملطخ بالطين، اتجه ناحية دار الطبيب المشهور في تلك المنطقة، أخبره بهدوءٍ أن أمه مريضة ويحتاج مساعدته، خرج الطبيب معه وعبر أحد الأزقة الضيقة، ترجلتُ خلفه، كنت أنتظر ملاقاة الطبيب منذ أمس من أجل الاطمئنان على نبرة التي اصفر وجهها قليلًا من كثرة التقيؤ، فتتبعنا أثره دون أن يلحظ أحد، اختبأنا في دارٍ مجاورةٍ وانتظرنا خروجه، مر وقتٌ طويلٌ ولم يخرج!

ألقى الليل ظلمته التي أكسبت البيوت منظرًا مخيفًا كأنها أشباحٌ تفتح أفواه الجوع لمن يعبرها، شعرتُ ببرودةٍ تجتاح جسدي خوْفًا من عدم خروج الطبيب، التففت حول الدار فربما يكون هناك مخرج آخر من الخلف فلم أجد! أصابني الخوْف وشعرتُ أن وجودي ونبرة هنا فيه خطورة علينا، سحبتها من يدها مسرعين فارين من أن نكون الصيد القادم لذلك الرجل، ابتعدنا عن البيت، وكلما قابلنا رجلًا

في الشارع نتلفت حولنا كأنما سيُلقي علينا فخاخه ليصطادنا، خاصةً لو كان يبدو عليه الصحة!

وصلنا للدار التي اعتدنا الاختباء فيها منذ فترةٍ فسمعنا صوتًا فيها، تراجعنا للخلف ودخلنا الدار المقابلة حتى سمعنا خطواتٍ ثقيلة تبتعد عن ذلك الدار، حاولتُ إقناع نبرة بالمكوث حتى أستطلع المكان وأعود لأخذها فرفضت خوْفًا، ففضلنا الاختباء على سطح هذه الدار حتى الصباح.

أصبح تَحرُكنا في الليل مُحالًا، في كل خطوةٍ تخطوها قد تفقد روحك، أو تفقد إنسانًا يُمَثل جزءًا من روحك فيتأذَّى قلبك، جميع الطرق تؤدي إلى نتيجة واحدة.

في صباح اليوم التالي، اتجهنا ناحية بيت الطبيب طامحين أن يفتح لنا الباب بنفسه وتنقلب ظنوننا دحورًا؛ ليتبقى ولو قدر ضئيل في قلوبنا من الأمن. طرقنا الباب ففتح صبيٌّ قارب الحادية عشر من عمره، سألته إن كان والده موجودًا فيأذن لنا بزيارته، نكس الصبي رأسه وقال بأسفٍ:

_ لم يعُد والدي من الخارج منذ أمس.

أقبلت امرأةٌ هزيلة البنية من خلف الصبي تجر خطواتها بضعفٍ، يبدو أنها من الصالحين القلة الذين لم يأكلوا لحم إخوتهم، زجرت ابنها وأمرته بالدخول، بينما واربت الباب وحدثتنا من خلفه بقلقٍ، أخبرتنا أن زوجها خرج مع أحد الرجال منذ أمس ولم يعد، وأنها أرسلت أخاه للبحث عنه، قلتُ لها أنني رأيته أمس وهو يغادر بيته مع ذلك الرجل، وأعرف مكان الدار التي زارها، وأنني انتظرته كثيرًا فلم يخرج ومللتُ كثرة الانتظار، فغادرتُ عازمًا أمري أن أَمُر عليه في داره غدًا، شهقت المرأة ثم ارتدت وشاحها وخرجت برفقتنا بعد ما أحكمت غلق الباب على أولادها، أقبل رجلٌ نحيلٌ من خارج البناية لاهثًا، فقال بصوتٍ واهنٍ:

_ سألت عنه في كل مكانٍ فلم أجده.

قالت المرأة:

_ إنهم يعرفون الدار التي دخلها أمس ولم يخرج منها.

رمقنا الرجل بنظرة شكٍ، ثم قال للمرأة بقلقٍ:

_ وما أدراكِ أنهما لا يخططان لاستدراجنا ليأكلانا، خاصةً وأنهما يبدو عليهما الصحة! عودي إلى دارك وأحكمي غلق الباب عليكم.

ثم وجه حديثه لنا وقال آمرًا:

_ ستبقى زوجتك هنا حتى أعود سالمًا.

هززتُ رأسي رافضًا، ثم قلتُ بحدةٍ:

_ وما يُدريني ألا تفعلها تلك المرأة وتقتل زوجتي؟

رمقني بنظرة استهزاءٍ:

_لو كنا نأكل لحوم البشر لظهرت علينا الصحة!

قاطعتنا نبرة وقالت:

_اذهب معه يا رحيم، سأنتظرك هنا.

انتقلتُ ببصري بين الرجل والمرأة، ثم قلتُ:

_لا لن أتركها، سنغادر جميعنا وتنتظر المرأتان أمام الدار المقصودة.

وافق الرجل بعد محاولات إقناعٍ مني وتوجهنا ناحية الدار التي دخلها الطبيب أمس، يسيرون بخُطى بطيئة من

شدة الضعف، وقفت نبرة والمرأة بالخارج بينما دلفتُ أنا والرجل إلى الداخل، رائحةٌ نتنة تملأ المكان لم تحتملها أنوفنا، شهق الرجل خائفًا وجذبني للخلف وخرج مسرعًا، لمحتُ منظرًا لم تحتمله عيني فغادرت مسرعًا لألحق به، حثنا على إسراع الخُطى وعُدنا إلى دارهم مرةً أخرى، بكى كثيرًا لكن أبت عينه أن تفك أسر دموعه الحبيسة، ربما لشدة جفاف جسده، سألته المرأة عن زوجها، فقال الرجل بنحيب وهو يلطم خده:

_مات أخي، أكلوه الضباع البشرية لم يتبقَ سوى ملابسه ورأسه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

صرخت المرأة، وظلت تضرب رأسها، وتلطم وجهها، ثم سقطت مغشيًا عليها.

مر اليوم ثقيلًا باردًا لا تمر دقائقه، بعدما غادرنا وتركنا زوجة الطبيب التي لا نعلم إن كانت ماتت أم أنها على قيد الحياة، تسللنا من بين الجيران التي احتشدت على صوْت صراخها حتى لا نكون محط شكوكهم، هربنا بعيدًا

وجلسنا نفكر في طريقةٍ تجعلنا نبدو هزيلي الجسد، بحثنا في الأسواق عن جلبابٍ أوسع لي ولنبرة، البضائع مُلقاة لا يهتم بها أصحابها والكثير ملقى جانبًا بلا صاحب، خلت معظم الدكاكين من التجار؛ بسبب كثرة الوفيات فلا يجد الرجل منهم مَن يرثه حتى أن تركة أحد التجار بالسوق انتقلت إلى أربعة عشر وارثًا في مدة شهر! لا نعلم أهلك أصحابها من الجوع وماتوا؟ أم لأن كل شيءٍ فقد قيمته مقابل الطعام؟!

ارتديتُ جلبابًا أوسع وهكذا نبرة فعلت، غطت وجهها بوشاحها بينما لطخت وجهي بالأتربة لتخفي نضارة وجهي.

انقلبت أحوال الناس في ذلك الزمن؛ صاروا يتفننون ويحتالون من أجل صيد اللحوم البشرية بطريقةٍ لا تلفت الأنظار إليهم، استغلوا تفشي الأمراض بينهم، فيستدعي الواحد منهم الطبيب ثم يقتله ليصبح وجبةً له ولأهل بيته!

الناس لم تعد تلتفت للبيع والشراء، حالة من الكساد العام إلا بيع الخطاطيف والكلاليب؛ لتستخدم في صيد فرائسهم من فوق أسطح المنازل، هلك الكثير من الناس

فمَن لا يقتله الجوع يقتله المرض أو يصبح فريسةً لغيره، فإذا قوي القوي على الضعيف ذبحه وأكله.

«الجوع الجوع .. الخبز الخبز»

رددها حشدٌ من الضعفاء المارين بجانبي والتف حولهم آخرون من السوق، تتقلب بين ملامحهم ترى فيها انكسارًا وخِزيًا. النساء خرجن دون خوْفٍ أن يؤكلن! لا ضيْر، حينما يطغي الجوع والعَوَز يتبدد الخوْف، كل مَن يصول ويجول هاتفًا دون خوْفٍ، فَقَدَ عزيزًا تحطم الفؤاد لفراقه، أشباح تصيح في الطرقات، لعل الصراخ يخرج الطاقات المكبوتة، لو فقدوا كل الحلول فلا يهم إن صاحوا واستغاثوا، لعل الله يكشف عنهم غمتهم.

الكبير والصغير يُردد دون توقفٍ لعل الصوْت يشق السماء ويعود بمائدة الفرج، تطعم أولاهم وتفيض لآخرهم.

مَن كان غنيًا تغيرت أحواله عن سابق عهده، فلن يطعم أبناءه أموالًا وذهبًا، يصيح من أجل الخبز، والفقير اعتاد الصراخ منذ لحظة ميلاده، لكن القحط بلغ منه مبلغه.

الفصل السادس

ولرُب نازلةٌ يضيق لها الفتى **

ذرعًا وعند اللّه منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها **

فرجت وكنت أظنها لا تفرج

الإمام الشافعي

اشتدت الضائقة وبلغت منتهاها! توارد على ألسنة الناس أن الوالي باع كل ما لديه، حتى أنه باع رخام المقابر الخاصة بآبائه، لم يعد يملك إلا حصيرةً يجلس عليها وبغلةً يركبها، وغلامًا واحدًا لخدمته، وانزاحت نساء بيته إلى العراق فارات من الهلاك، كما فعل الكثير من أهل القاهرة، الموت أحاط بالناس من كل مكانٍ، مات ثلثا أهل مصر! وصل عدد الموتى في اليوم الواحد ثماني عشر ألف نفس، أصبحت البيوت خاويةً على عروشها، خلت الشوارع من الناس، ماتوا جميعًا!

تملكني الفزع ولم يعد لديَّ حجج أهون بها على نبرة، قلتُ بامتعاضٍ:

_أين الخليفة من كل ذلك؟! كيف يترك شعبه للموت جوعًا؟! هل نفدت الحلول لديه؟! أليس من واجبه تجاه شعبه إحياء الأنفس التي أضناها الجوع؟!

قالت نبرة وعينيها شاردتان:

_الوالي نفدت أمواله في تكفين الموتى حتى لا يصبحوا فريسةً سهلة الصيد للجوعى.

قلتُ مستنكرًا:

_وبالنسبة لسد جوع بطون الأحياء!

قالت باستسلامٍ:

_خلت خزائنه، ونفدت حلوله، الحل المنتظر في يد بدر الجمالي.

_وهل سيستطيع الجمالي إنهاء تلك المجاعة؟!

قالت بجمودٍ دون أن يتحرك لها رمش:

_نعم.

إذن علينا لفت انتباه الخليفة ناحية الجمالي، وبذلك ستنتهي الأزمة.

قالت بشرودٍ:

_لكننا سنظل عالقين هنا، الأزمة انتهت منذ أعوامٍ كثيرة، نحن مَن اختار أن يعيش ذلك الكابوس.

_تقصدين أننا لن نستطيع العودة حتى بعد انتهاء الأزمة؟!

لم تُجب سؤالي، فرت الدموع من بين جفنيها بغزارة، شعرتُ بالحنق فصرختُ في وجهها:

_لن نظل عالقين هنا، حتمًا سنعود، طالت المدة أو قَصُرت سنعود يا نبرة.

نهضتُ وجَذبتُها من ذراعها:

_هيّا سنذهب الآن إلى الخليفة، ونخبره أن الحل في الاستعانة ببدر الجمالي.

سحبت ذراعها من بين أصابعي بهدوءٍ، مسحت دموعها بطرف أكمامها، ثم قالت محاولةً تهدئتي:

_لن تستطيع تغيير التاريخ، التاريخ لا يتغير مهما حاول الآخرون العبث به، أو تدليسه، أو حتى نسب إنجازٍ لغير صاحبه. دع الأمور تسير كما هي ودعنا نفكر في حلٍ لعودتنا لعالمنا.

هدأتُ قليلًا، ثم قلتُ:

_إذا تركنا الأمور تسير كما هي سنموت خوْفًا أو على يد أحدهم وتلتهمنا البطون، على الأقل نترك خطابًا للخليفة نخبره بالأمر.

قالت بيأسٍ:

_وبعدها! سنظل هنا نتجرع الوحدة والوحشة بلا أهل، نحن قذفنا بأنفسنا في القارورة بمحض إرادتنا لكن في العودة.... ستُسلب إرادتنا.

_فلنحاول.

_أنت هنا مُسيَّر لا مُخَير، تسرق، تبخل، وقد تقتل لتشبع! أنت لستَ أنت، أنت كما لو كنتَ في وقت الشدة، في عالمنا لم تضغط علينا الظروف لتقيس مدى صلابتنا وتَمَسُكنا بمبادئنا، دعنا نرى ما تريد القارورة أن تُريه لنا.

جلستُ القُرفصاء، واضعًا رأسي بين يدي، أحاول التفكير في كلمات نبرة، هل أترك نفسي في هذا العالم المحاط بالمخاطر؟! أم أحاول تغيير الواقع؟ لكني لستُ في واقع،

وأيضًا الخيال ليس بهذه القساوة!

جاء صوت المنادي من بعيدٍ ببيانٍ لم أتبين كلماته جيدًا، جريتُ لأقترب من صوته لكنه صار أبعد، سألت أحد الواقفين عما قاله المنادِ فقال:

_ الخليفة أمر بتعيين بدر الجمالي والي عكا شئون البلاد، وعلينا السمع والطاعة وتنفيذ الأوامر.

شعرتُ بفرحةٍ عارمةٍ اجتاحت صدري، شعاعٌ من نور اخترق الظلام الذي ظننته لن ينقشع أبدًا، عدتُ مسرعًا لنبرة لأبشرها بالأمر الجلل الذي انتظرناه طويلًا، الأمر أشبه لنا بقراءة الغيب، أن تعرف المشكلة وحلها، وليس كل الموجودين في هذا الزمن يعلمون بحل الأزمة وانقشاعها، من عَبَرَ القارورة وحده يعرف القصة بأكملها، قارورة شندي تلقنك الدرس جيدًا! لو عاش الناس سنواتٍ طوال يقرأون في كتب التاريخ لن يشعروا بمعاناة أهل الشدة المستنصرية، الأمر أشبه بوصفي لك مدى مرارة شجرة المُر، لعلك تشمئز من اسمها لكن تذوقها أشد سوءًا على

الإطلاق. عدتُ مسرعًا حيث تركتُ نبرة لكني لم أجدها! بحثتُ عنها في كل الأزقة المحيطة لكن بلا أثرٍ، نهش الخوْف صدري، هل أصابها مكروهًا؟ تورمت قدماي من البحث في كل مكانٍ بلا فائدةٍ، شعرتُ بتأنيب الضمير والحرقة، أضعتها وأضعتُ نفسي معها، لن أستطيع العودة بدونها أبدًا، فلنعد معًا أو أموت هنا!

مرت أيامٌ أنهمكت في البحث كل يومٍ، أسأل مَن يقابلني عنها، تذكرتُ المرأة التي فقدت ابنتها وظلت تجوب الشوارع بحثًا عنها، لكن الابنة مصيرها كان محتومًا، عجزتُ عن التفكير، مرت كل الصور الشنيعة التي رأيتها منذ خطت قدمي هذه الأرض أمام عيني، لكن عقلي يرفض بشدةٍ أن يستسلم لفكرة أنها وقعت فريسة لأحدهم، زجرني أحد العسس للذهاب إلى السوق الكبير بالمدينة عُنوة؛ إنهم يجمعون الناس للاستماع إلى بيان بدر الجمالي.

توجهت مع الجموع أحمل فوق عاتقي همًا يفتك بصدري؛ لولا أن ثبتني الله، على أمل أن أجدها وسط هذا الحشد، وقف الجمالي وحوله الكثير من الجنود، رجلٌ يبدو عليه الهيْبة والشدة، عريض المنكبين، ذو شاربٍ كثٍ ولحية سوداء يتخللها بعض الشيب الأبيض، كان هناك رجال مكبلين، بدأ الجمالي في إلقاء بيانه على آذان الناس بصوتٍ جهوري، أصدر قراراتٍ صارمة لا هوادة فيها، القتل لآكلي لحوم البشر، توعد من العدل أن يلاقي عقاب يعادل فعلته شناعة إما القتل بالسيف أو الحرق كما فعل الخوالي مع الأم آكلة رضيعها، ثم باغتهم بضربةٍ من سيفه على أعناق الرجال المكبلة ففاضت أرواحهم كخنازيرٍ لا قيمة لها، عم الذعر بين الكثير، فصاح في الناس مكررًا أن يلاقي نفس المصير مَن يفعل فعلتهم الشنيعة، أو لَمن يجد في داره لحوم بشرية، أو مَن يتاجر فيها سرًا، ارتعب بعض الحاضرين وظهر عليهم ملامح الارتباك، ومنهم مَن عاد إلى منزله فوْر انتهاء الجمالي من خطابه؛ ليتخلص من اللحوم المخزونة لديه، بدأ بعض

مَن يتاجر في اللحوم البشرية يتلفتون حولهم خوْفًا، شرع الجنود الأرمن الذين استدعاهم الجمالي معه للسيطرة على الوضع بالتفتيش داخل البيوت، والانتشار في الشوارع، ومَن يُعثر على لحومٍ في بيته يُقتل في الحال، انقسم الناس بين صنفين، من أكل ذلك اللحم من أجل سد جوعه فحسب وتاب عن فعلته خوْفًا من الله وتنفيذًا لأمر الوزير كأن الله أجرى الحق على لسان الجمالي فورع مَن كان في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان. أما الصنف الآخر مَن استغل الأزمة وطفق يقتل في الناس ليبيع لحومهم، أمن العقاب فاستحل الفواحش.

تمر الأيام وربما الشهور، فقد فقدتُ الإحساس بالزمن منذ عبور القارورة، ضائع تائه لا أتبين وجهتي، جلستُ على ضفاف النيل بجوار شابٍ في مثل سني تقريبًا، برزت عظمتا خده وأنفه، شفتاه متشققة باهتة اللون، اطمئن قلبي لرؤية علامات الهزال على وجهه، سألته عن نبرة لعله رآها بين الزحام، شعرتُ بمدى سُخف سؤالي فتوقفت عن الكلام،

كالتائه في كوكبٍ آخر، يبحث عن ضالته وهو ضائع!

دع البوْح جانبًا يا رحيم، ربما لا يليق حديثك بما يدور حولك! تحلى بالكتمان والصمت وابتغِ بين ذلك سبيلًا، أنا غائبٌ في حضرة الجميع، لا أسمع سوى صدى صوتي يتردد داخلي، أسمع صوت حُطام روحي يصم أذني، مهما علا الضجيج حولي؛ لا ألتفتُ، أنا كبركانٍ في أرضٍ بعيدة أثور وأهدأ ولا يشعر بثورتي أحد.

عم الصمت قليلًا، فبادرني بالحديث قائلًا:

_ هل انتبهت لارتفاع منسوب النيل قليلًا؟

هززت رأسي بإيجاب، فأكمل حديثه بشرودٍ:

_ يبدو أن الله لن يضيعنا، تأتي البشريات الواحدة تلو الأخرى، رغم الهلاك! هل سمعت ماذا فعل الجمالي أمس؟

لم يجد مني إجابةً فأكمل قائلًا:

_ أعد الجمالي لكبار قواد الأتراك وليمةً عظيمة، وبعد انتهاء الوليمة أخذ كل أميرٍ من الأرمن قائدًا تركيًا ومعه ثُلّة

من الجنود ليوصله إلى منزله، فبطش كل أميرٍ بالقائد الذي معه وقتله بالسيف بالقرب من منزله.

ابتسمتُ لدهائه، وقلتُ:

_وهل علم الوالي بتلك الخُطة؟

_بالطبع، أسرع الجمالي إلى الخليفة المستنصر يخبره بنجاح الخُطة والقضاء على خصومه؛ ولهذا لقبه الخليفة بأمير الجيوش.

حقًا إنه قائد مُحنك، بدأ الجمالي أولى خطواته نحو الإصلاح بقوةٍ وصلابة متخذًا كل السبل للنهوض بالدولة؛ عزل الوزراء الذين عاثوا في الأرض فسادًا وعيَّن بدلًا منهم رجاله من الجند الأرمن؛ ليضمن ولاءهم له وتنفيذهم أوامره، حث الفلاحين على الزراعة، ورفع عنهم الضرائب، وشرع في إصلاح قنوات الري، بدأ خيطٌ من النور يشق الظلام؛ فاهتدى به مَن ضل الطريق.

الفصل السابع

تدثر بأحلامك جيدًا
حتى لو خذلك الواقع.

بدأت الغُمة في الانقشاع، لاح للناس الأمل من بعيدٍ على يد الجمالي فإذا صلح الراعي؛ صلحت الرعية.

أما أنا فانشغلتُ في البحث عن نبرة أو أي أثرٍ لها واستبعدت فكرة العودة بدونها، هناك ألمٌ لا يبارح صدري، أخشى أن أعيش هنا ما تبقى من عمري بدونها، ولو كانت معي؛ لهان الأمر حتى لو مكثنا هنا بقية العمر، وجودي بدونها عدم، رغم الأهوال التي رأيتها لم أحزن كحزني لضياعها.

رحلت وتركت قلبي كصحراءٍ جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وقد سئمتُ التيمم في قصة عشقها، ما أصعب ليالي البعد وما أثقل مؤونتها! كلما حاولتُ دفعها لتمر تأججت نيرانها وما لها من مُطفئ.

قطع شرودي رجلٌ يحاول تكميم فم الطفل ويحاول الابتعاد به عن مرأى الناس، ترددتُ في الاقتراب، قد أُقتَل وتظل نبرة عالقة هنا، لابد أن أبقى حيًا لأبحث عنها، هل سأترك الطفل يموت؟ هل انغمست روحي في كل هذا

القبح فاعتادت الأمر؟! كيف لا أنصر مظلومًا ضعيفًا؟!
أمام الرجل قدرٌ يغلي فيه الماء كغليّ دمائي، رفع الرجل سلاحه وصوب نصله ناحية عنق الطفل فانقضضتُ عليه وحررتُ الطفل من قبضته، جرى الطفل بعيدًا بينما تشبث الرجل في عنقي يصارعني مصوبًا نصل السكين تجاه عُنُقي، فإن هربت وجبته الصغرى بعيدًا؛ فأنا وجبةٌ حاضرة شهية سخية، لن أستسلم، سأعيش لأبحث عن نبرة بكل ما أوتيتُ من قوةٍ، سأهزم هذا الجسد الهزيل المريض، كاد النصل يخترق جلدي فأبعدته مصوبًا إياه ناحية قلب الرجل فطعنته، هوى أرضًا كورقة شجرٍ ذابلة مصفرة مصدرًا صرخةً عالية. لا أعلم كيف قتلته؟ كيف لوثتُ يدي بدمائه؟ ارتجف قلبي وتصارع خفقانه حينما وجدتُ بعض المارة وجنود الجمالي يحيطون بي، صحتُ بهيستيريا:
_لا... لم أقتله لآكله... كاد يقتلني فقتلته دون قصدٍ مني... أرجوكم تبينوا الأمر... أين الصبي؟ كان هناك صبي سيُقتل اسألوه... لا تقربوا مني.

صحتُ حتى بُح صوتي، قيدوا معصمَيَّ خلف ظهري، ساقوني أمامهم، لم يستجيبوا لاستغاثتي، وقعتُ في براثن الجند لا مفر منهم.

الفصل الثامن

اخلع نعليك، هنا دُفِن التاريخ!

في اليوم التالي حُشِدَت الناس ليشهدوا إعدام آكلي اللحوم البشرية، وأنا منهم! صمتٌ مهيب وذل عاتٍ، تطبق الأحكام بصرامة لا هوادة فيها، عُلِّقَت المشانِق وأوقفونا على منصة عالية، بحثتُ بين الجموع عن نبرة علّها تصرخ لرؤياي فأطمئن أنها بخير.

« أرجوكِ إن كنتِ بينهم لا تظني بي سوءًا، لم أفعل فعلتهم وإن كنتُ اشتهيتُ يومًا ذلك فأنا بشرٌ أصيب وأخطئ، لكن اليوم أنا بريءٌ مما نُسِبَ إليَّ، فالتمسي العذر لي وحاولي الفرار من ذلك العالم اللعين، الضحية ضعيفٌ محاسب على أخطاءٍ اقترفها غيره، ابحثي عن ثغرة العودة ولتبقي على قيد الحياة آمنة مطمئنة من أجلي »

دفعني أحد الجنود ولف الحبل حول عنقي، فنطقتُ الشهادة وأغمضتُ عيني بشدة، أنتظر الخلاص من كل ذلك البؤس والشقاء، الطوْق الذي يلتف حول عنقي سيحررها بالموت.

اقترب أحدهم ودفعني من أعلى المنصة لأتلقى عقابي على ذنبٍ لم أرتكبه إلا دفاعًا عن نفسي، شعرتُ بقوة دفعه، ارتطمت في ظهري فجعلت عيني تزوغ في هالاتٍ مضيئة بألوان الطيف، تدور حولي بسرعةٍ تتداخل بعضها في بعض تدفعني داخلها بشدة، غُصة تتدفق إلى حلقي جعلتني أختنق، زاد اختناقي أكثر وأكثر، سقط جسدي أرضًا مغشيًا عليّ، هل يشعر الإنسان بجسده بعد موته؟! عقلي يستمر في التفكير بلا انقطاعٍ! يحاول الفرار من الموت، يدي تتحسس شيئًا ما! ربما أرضٌ صلبة! هل دفنوني قبلما يأكلني الجوعى؟! حاولتُ فتح عيني ببطءٍ، ما هذا الذي أرى؟ ظلمة القبر أم أنني أهذي؟! شيءٌ ما بجواري، ضخمٌ يكفي لدخول إنسان فيه، له ملمس معدني يلمع بصُفرة الذهب في الظلام، إنها القارورة، إنني حي!

جلستُ متثاقلًا حزينًا لعودتي دون نبرة. نظرتُ للمكان متأملًا لأزرع اليقين داخل قلبي أنني عُدت، صحتُ فزعًا، إنها نبرة تجلس القرفصاء أمام القارورة، صرخت لصياحي

ثم بكت، أما أنا فتنفستُ الصعداء بقلبٍ مطمئن، هدّأتها وخففتُ من روعها حتى سكنت، إنها بخير على ما يبدو لي، سألتها:

_كيف عُدتِ؟ ومنذ متى وأنتِ هنا؟ مرت أيامٌ كثيرة صعبة أبحث عنكِ في كل مكان.

أشارت إلى ساعتي فنظرت فيها، الساعة التاسعة وخمسة وثلاثون دقيقة، العقارب تدور بشكلٍ جيد كأنها لم تتوقف بعد!

قالت بوهنٍ:

_ضربني أحدهم على رأسي بشيءٍ ثقيل ليلتهمني، لكن القارورة جذبتني إليها وأعادتني لدار شندي، لم يمر الوقت منذ دخولنا القارورة، لقد توقف الزمن بعبورنا الفُوهة، وعدتُ قبلك في نفس الدقيقة التي دخلتُ بها، أنا أجلس هنا منذ عشر دقائق، لم أستطع التحرك بدونك.

تعجبتُ لحديثها، لكنه حقيقة؛ فساعتي تحركت خمس دقائق فوق النصف وتلك هي المدة التي حاولت تهدئتها بها،

سألتها بقلقٍ:

_إذن أين راضي؟ كنت أراه مغشيًا عليه قبل عبوري الفُوهة؟

_عندما لفظتني القارورة كان راضي يحاول تحريكها بشدة وينادي عليك، فزع لمرآي، أخبرته بما حدث، فقال إنه سيأتي بشيءٍ من داره؛ ليُهشم القارورة ويفسد عملها لينقذك.

قلتُ بتوتر: لا بد أن ألحق به لأُطَمئنه، هيَّا نخرج من هذه الدار اللعينة.

تسللنا خارج الدار، اتجهت نبرة ناحية دارها متخفية واتجهت أنا ناحية دار صديقي راضي، لا أصدق أن الله كتب لي النجاة، وهكذا نبرة، رحلة طويلة بها أهوال لا يصدقها عقل، لكني الآن آمنتُ أنه لا يشعر بمرارة الأيام إلا مَن تذوقها عن كَثبٍ، أن ترى، وتسمع، وتشعر، وتخاف، وتحزن، وتجوع لا يعادل قلقك من مجرد قصةٍ تقرأها في كتب التاريخ!

وصلتُ إلى دار راضي، طرقت الباب ففتحت والدته سألتها عنه فقالت أنه غادر مسرعًا منذ قليلٍ ومعه مِطرقة، دق قلبي خوْفًا أن يعود للقارورة، تركتها وعدتُ مسرعًا ناحية دار شندي مرةً أخرى، تسللتُ إلى الداخل أبحث عنه بقلقٍ، كان هناك كشاف ضوئي مُلقى على الأرض فحملته وأسقطتُ الضوْء في كل مكان، ما هذا الحذاء المُلقى بجانب القارورة؟! أعرف هذا الحذاء جيدًا، إنه حذاء راضي! انتفض قلبي رعبًا،

مخطوطة ملقاة بجوار الحذاء مكتوب فيها:

« اخلع نعليك، هنا دُفِن التاريخ، فلتستدعِ معك مَن شئتَ لمرافقتك »

أسقطتُ الضوء على القارورة فإذا بمِطرقةٍ مُعلقة في فُوهتها، لقد عبر راضي عنق القارورة؛ فسقطتُ مغشيًا عليّ.

تمت بحمد الله

إهداء إلى/

روح الدكتورأحمد خالد توفيق

الذي جعلني أقرأ

وأكتب

أيها القارئ العزيز،

شكرًا لك أنك أعطيتني جزءًا من وقتك لتقرأ كلماتي، وأرجو أن يكون عملي الأول قد لاق استحسانًا منك، فاعذرني على ما بها من هفواتٍ، فليس مِن العدل أن يتخلى المرء عن أحد أبنائه؛ لأنه لا يضاهي مَن حوله جمالًا!

استحييتُ أن أطيل المقدمة حتى لا أشعرك بالملل، فامنن عليَّ بدقيقةٍ أخيرة أشكر فيها من دعمني يومًا.

شكرًا بل وجزيل الشكر لأهلي جميعهم أبي وأمي، أخي عبد الحميد وأخي عمرو، وزوجاتهما، أختي سماح وأختي هبة " قارئتي الأولى".

صديقات العمر الأربعة: دعاء، ودعاء، ووفاء، وسارة.

شكرًا جزيلًا ياسمين صالح؛ لأنني تعلمتُ منكِ الكثير دون أن تدري، ويعلم الله أنني أحبك فيه حبًا جمًا.

شكرًا لفرحة عمري وقرة عيني أبنائي صالح وماريا؛ فقد اقتطعتُ من وقتكما الكثير من أجل إخراج ذلك الكتاب إلى النور.

شكرًا للجميلة أسماء أبو خلف على دعمها الدائم لي.

قد تسقط بعض الأسماء سهوًا مني، لكني والله أهدي هذا العمل لكل مَن يحمل في قلبه مثقال ذرةٍ من حب لي.

دمتم جميعًا في خير

المراجع

-إغاثة الأمة بكشف الغمة، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي- دراسة وتحقيق الدكتور/ كرم حلمي فرحات.

-اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي- دراسة وتحقيق الدكتور/ جمال الدين الشيال

أستاذ التاريخ الإسلامي وعميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية